

الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (146 ق.م-439م):

أسامة بقار: جامعة محمد خيضر-بسكرة.-

محاضرة موجهة لطلبة السنة الثانية تاريخ عام: 2020/05/13.

1-توطئة عامة:

تحظى الفترة الرومانية لبلاد المغرب أو ما يُسمى "المغرب الروماني le Maghreb romain" باهتمام خاص من قبل المؤرخون والأثريون الأوروبيون والمغاربة، وهذا لاعتبارات عديدة، منها ما هو أكاديمي: وفرة المادة العلمية (الأدبية والمادية) التي تسمح بدراسة هذه المرحلة، وأخرى أيديولوجية برزت مع الاحتلال الفرنسي لبلداننا الذي سعت سلطاته لمعرفة سياسات روما بالمنطقة للاستفادة منها، واستمرت مع القوى الأوروبية الحالية التي تنظر للمنطقة كأرض إرث حضاري لأجدادهم. في دراسة هذه الفترة ركز الباحثون في أبحاثهم على عديد القضايا: التنظيم السياسي والعسكري، الديني والثقافي، التنظيم الاجتماعي والقبلي، لكن لا تزال مسألتنا "الرومنة romanisation" و"انتشار المسيحية=التنصير christianisation" تحظى بعناية واهتمام في البحث لغاية يومنا الحالي. إن تاريخ الوجود الروماني في بلاد المغرب يمتاز بكونه "معقد"، لهذا نلاحظ أن الأسطوغرافيا الخاصة به عانت من تلك المقارنة التي أقيمت بين "الاستعمار القديم" و"الاستعمار الحديث"، والتي جعلت منه عند البعض استعمار "مقلوب=معكوس"، أي محاولة المختصون وضع مقاربات ومقارنات بين الحركة التوسعية للرومان والاستعمار الأوربي الحديث. منذ ثلاثينات القرن التاسع، وضمن السياق الاستعماري الفرنسي كانت دراسة الماضي الروماني محتكرة من قبل الباحثون، الدبلوماسيون، العسكريون والدينيون الفرنسيين المهتمين بدراسة التراث الروماني. هذه الأسطوغرافيا التطوعية التي قادها المؤيدون للاستعمار الفرنسي سرعان ما كشفت عن رهاناتها الأيديولوجية والسياسية: لقد عبرت لنا كيف أن الفرنسيون سعوا لإظهار أنفسهم كورثة للسلطة الرومانية بالمنطقة، وبمساعدة هؤلاء الباحثون بحثت فرنسا عن بناء "نموذج غزو" في أرض لها شهرة في العصيان (العناد). في هذا الصدد يكشف لنا "غزال" أهداف فرنسا وأسباب عنانيتها بالتاريخ الروماني: "إن معرفة الماضي ضرورية جدا لمتطلبات الحاضر، وإن ماضي الرومان بالجزائر يقدم للفرنسيين العبرة ويرشدهم إلى الأخطاء التي وقعت فيها المؤسسات الرومانية، ومنها مثلا عدم استغلالها الظروف لتوسيع خريطة الديانة المسيحية"¹.

لقد راحت عديد الكتابات التاريخية الفرنسية تقدم مبررات لشرعية الاستعمار الفرنسي، وتضعه على قدم المساواة مع الغازي الروماني، لهذا يلاحظ أن التاريخ العسكري الروماني حظي بمكانة بارزة في الدراسات الفرنسية أملا في أن تستفيد فرنسا من تجارب وسياسات روما العسكرية، فبرزت العديد من الأبحاث والأفردات (المونوغرافيات monographies) كُتبت ضباط فرنسيون. من جهة أخرى، فإنه بالنسبة لأعضاء الإكليريوس (رجال الدين) الكاثوليك فإن بلاد المغرب هي "أرض الإرسالية (التبشير)" بقدر ما هي "مهد التنصير" الذي طُبَّع وجود "القديس أوغسطين". لمعرفة أعمق لهذه الفترة تزايد الاهتمام بالآثار الرومانية دون بقية الآثار، وبعلم النقوش (épigraphie)، والذي لعب الجيش الفرنسي دور أساسي في تشكيلها. لتحليل ودراسة تلك النقوش تشكلت جمعيات ومجلات جهوية (قسطنطينة، الجزائر، وهران)، والتي أسهمت مؤلفاتها في تعزيز المعرفة الفرنسية بتلك الفترة، ومجابهة منافسة الأسطوغرافيا الألمانية التي برزت في المستعمرات الفرنسية. مجهودات سمحت بظهور المدونات الأولى للنقوش اللاتينية مع Louis Rénier (كتاب النقوش اللاتينية بالجزائر سنة 1855 الذي يتضمن 4400 نقيشة)، ثم برزت أعمال "كانيا R. Cagnat" والألماني "مومسن Th. Mommsen"، والتي أدت في النهاية لنشر "مدونة النقوش اللاتينية المعروفة بالاختصار C.I.L"، التي خصص الجزء الثامن منها للنقوش المغاربية، كما برزت أيضا نشرة "السنة النقائشية l'année

¹ يُرجى العودة لمقال: محمد البشير شنياتي: التوظيف الاستعماري للتاريخ (مهام المؤرخون الفرنسيون)، في كتاب: أضواء في تاريخ الجزائر القديم، ص-ص: 7-18.

"épigraphique"، وكلاهما يعدان اليوم من الوثائق التي لا يمكن الاستغناء عنهما لأي باحث راغب في دراسة هذه الفترة.

بعد "إنهاء الاستعمار décolonisation" يُلاحظ أن الخطاب التاريخي، موضوعات وأهداف كتابته، قد "انقلبت" في أعمال الجامعيين الفرنسيين مع بروز المدرسة المغاربية، لكن هذا لا يعني أنه تم الخروج عن الإشكالات السابقة. فنلاحظ أن المقاومون الجزائريون لفرنسا تمت مقارنتهم بمقاومة البربر للرومان، تم وضع "تخلف" البلاد بشكل موازي لثراء روما أو فرنسا اللتين استغلنا المنطقة، وأصبح ينظر لمفهوم "المقاوم" بإيجابية بعد الحرب العالمية الثانية. راحت الأبحاث توجه الاهتمام لدراسة أشكال المقاومة للرومنة، وبالأخص المقاومة الدينية المغاربية، بهذا الخصوص نجد الدراسة الحصيفة والشهيرة للمؤرخ "بينابو": "la résistance africaine à la romanisation = المقاومة الإفريقية للرومنة. اليوم تحاول الأبحاث الفرنسية الخروج من الخطابات العدائية، وغالبا ما تكون مانوية (تحليل العلاقات والوقائع وفق مخطط "الخير مقابل الشر") لقياس عمق الرومنة، وفق مسار يصفه "بول كوربي Paul Corbier: "إن دراسة الإمبريالية الرومانية كنموذج يُنذر بالإمبريالية المعاصرة، هو بطبيعة الحال تشويه (تزوير) لآفاق البحث وإنكار لأي خصوصية للتاريخ الإفريقي (المغاربي)"، وهذا لأن البحث التاريخي يعمل على أوجه التكامل أكثر من المعارضات الصارمة. يُلاحظ كذلك أن الأبحاث الأخيرة تبحث من ناحية على إرجاع تاريخ هذه الأراضي ضمن "السياق المتوسطي" (مشروع الاحتواء السياسي والثقافي لدول المغرب عبر سلاحي الجغرافيا والتاريخ الروماني-الفرنسي المشترك)، ومن جهة أخرى تقييم خصوصية الثقافات المغاربية ضمن الإطار الإمبراطوري الروماني. إن كانت المدرسة الفرنسية والأوربية تنشط وفق مواضيع بحثية وأهداف أكاديمية وسياسية، فإن المدرسة التاريخية الجزائرية لا تزال بعيدة عن المطلوب في الكتابة التاريخية عن هذه الفترة، وما تكتبه يغيب فيه التكامل والضعف المنهجي، مع بقاء باحثينا رهيني ما تنتجه المدرسة الفرنسية، لذلك فنحن أمام ضرورة مراجعات عميقة في المنهاج الجامعي، الرؤى والأهداف البحثية وحتمية العمل على تمكين الطلبة من أدوات البحث التاريخي-الأثري، وهذا بغية الدخول في البحث التاريخي للفترة القديمة الذي لم ندخله بعد من وجهة نظرنا.

2- روما وغزو بلاد المغرب:

2-1- أسباب الغزو:

لفهم عملية الغزو الروماني للمنطقة المغاربية علينا فهم حاجيات روما الاقتصادية والسياسية، ومعرفة النوايا والأهداف السياسية لها. بالعودة إلى الحياة السياسية الرومانية فإننا نلاحظ أنه قبل بروز "يوليوس قيصر" كان تيار المحافظين هو من يسيطر على الحياة السياسية في روما، والذي لم تكن له نوايا احتلالية استيطانية في بلاد المغرب، بل كل مساعيه تركزت على القضاء على الدولة القرطاجية المنافسة لروما في حوض المتوسط بهدف الوصول إلى "أحادية" قطبية في هذا البحر. في مقابل أن مملكة نوميديا لم تكن تشكل لهم أي تهديدات ولا لهم فيها أي أطماع، فقد كانوا ينالون منها على ما يحتاجونه: وحدات عسكرية تشارك في حروبهم، الحبوب، الحيوانات. لهذا سنرى بوضوح كيف أن "مقاطعة إفريقيا" التي انبثقت عن ضم أراضي لم تشهد أي استيطان روماني طول قرن كامل، وحتى بعد الانتصار على "يوغرتة" سنة 105 ق.م لم تُلحق نوميديا بالجمهورية، لكن هذا لم يمنع من وجود جملة من المشاكل والدوافع التي قادت روما لاحتلال المنطقة:

-حاجة روما لأراضي توزعها على "قدامى المحاربين vétérans" الذين كانوا يوعدون من قبل قادتهم بالحصول عليها بعد نهاية الخدمة أو الحرب، وهي الأراضي التي أصبح من الصعب توفيرها في إيطاليا، ما أصبح يشكل ضغطا على "روما"، وأدخلها تدريجيا في عديد الحروب الأهلية التي كان ظاهرها الصراع على السلطة بين حزب الأشراف (Optimates) وحزب الشعبيون (populares)، وفي عمقها هي صراع حول طريقة تسيير الجمهورية: تيار يريد الحفاظ على الوضع القائم لأنه يخدم مصلحة طبقته (حزب الأشراف)، وحزب يريد تحقيق المزيد من العدالة

الاجتماعية عبر التوجه نحو الاحتلال والاستيطان بالمقاطعات الرومانية (حزب الشعبين)، وفي النهاية انتصر "الشعبيون" الذين بإمكاننا أن نسميهم "الإمبرياليون"، والذي بوصولهم بدأت مشاريع الغزو والاستيطان.

-دفعت مشكلة "التمون الغذائي" لسكان الجمهورية "بروما" إلى التفكير في حل المشكلة عبر غزو أراضي المغاربة المعروفة بإنتاجها الكبير للحبوب، سواء مع الدولة القرطاجية أو الممالك المحلية، وبلا شك فإن القرب الجغرافي كان دافعا هاما في تركيز الاهتمام على بلاد المغرب.

-سعت الطبقة السياسية والعسكرية في "روما" إلى تحقيق النجاح والمجد العسكري ومعهما الثروة (الامتيازات المادية: المال والعقارات) لهم وللدولة عبر توجيه دولتهم لاحتلال المناطق الأخرى من العالم القديم، كما أن الغزو وتشجيع الاستيطان تحول لأحد أبرز البرامج الانتخابية لأي سياسي وعسكري، وهي أداة الاغراء الأهم لكسب الجنود في صفهم، ثم أن الطبقة السياسية الرومانية أصبحت مقتنعة بالمهمة (الرسالة) العالمية لروما، وأحققتها في التدخل في كل مكان (العقلية الإمبريالية).

-من ناحية أخرى، علينا ألا نغفل أن "روما" شهدت في تلك الفترة (القرن الثالث-الأول قبل الميلاد) زيادة معتبرة في عدد سكان التجمعات الحضرية ما خلق مشاكل اجتماعية عديدة على رأسها "البطالة"، وكان أفضل الحلول لتخفيف الضغط الديمغرافي وحل مشاكل روما الاجتماعية هو تشجيع الاستيطان نحو مقاطعات روما، وعلى رأسها بلاد المغرب.

-علينا ألا نغفل دور "اللوبي التجاري" في توجيه روما نحو غزو بلاد المغرب، فجماعة الضغط هذه سعت لاستغلال الفرص التجارية التي توفرها السيطرة على هذه المنطقة، والتي مثلما تستفيد هي منها فإن الدولة الرومانية كذلك تستفيد عبر التحصيل الضريبي. هذه الأهمية التجارية تبرز لنا مثلا في الأسباب العميقة لتدمير قرطاج، وفي تزايد عدد التجار الإيطاليون في "نوميديا"، والذين شكلوا جماعة متنفذة وموجهة للاقتصاد النوميدي، الأمر الذي دفع "يوغرطة" لقتلهم عند دخوله لقيردا سنة 112 ق.م.

2-2- جذور وممهدات الغزو:

كانت بداية التوغل الروماني في بلاد المغرب بتدخلات سياسية واقتصادية، ومن قبيل ذلك نجد أن روما سعت لخلق، الإبقاء وتعميق الانقسامات في المنطقة منذ نهاية الحرب البونيقية الثانية، فرأينا كيف استغلت "روما" حليفها وصديقها الملك النوميدي "ماسينيسا" ضد "قرطاج" و"سيفاقس" في الحرب، ثم بعد نهاية الحرب استغلته ضد "قرطاج"، فزاحت "روما" تحرض "ماسينيسا" ضد قرطاج، ما تمخض عنه توسعات سنوات 193-150 ق.م، وكانت في كل مرة تتدخل للتحكيم بين قرطاج ونوميديا وفق ما يخدم رؤيتها ومصالحها طوال فترة حكم "ماسينيسا". بعد انهاء "قرطاج" عبر "ماسينيسا" قررت روما في سنة 149 ق.م إعلان الحرب على "قرطاج" التي حوصرت لمدة ثلاثة سنوات وتم تدميرها ومحوها من الوجود، وهو الحدث الذي يُمكن اعتباره "رأس الجسر" لاحتلال كل بلاد المغرب، وبسقوط قرطاج فقد المغاربة الحصن الذين كان يدافع عن المنطقة، وهو ما جعل المؤرخ "فلوروس" Florus يصف الحدث قائلا: "لقد دفعت إفريقيا (قرطاج) ثمن النصر، وسرعان ما اتبع العالم مصير إفريقيا". بعد سقوط القوة القرطاجية تم تحويل أراضيها إلى أول مقاطعة رومانية في بلاد المغرب هي "أفريكا" Africa، وهي مقاطعة بمساحة متواضعة (20-25 ألف كلم²). داخل هذه المقاطعة سبعة مدن بونيقية احتفظت بحريتها لأنها تبنت موقف معادي لقرطاج، منها: "عتيقة=أوتيكا"، "حضر موت=سوسة"، "تابسوس=رأس ديماس"، "المطة Leptis Minor، ولأن الرومان كانوا متعودين على مشاكل التحديد العقاري (bornage) فقد قاموا بترسيم حدود أراضيهم الجديدة عن نوميديا عبر حفير يُطلق عليه "الخنديق الملكي fossa regia".

التدخل الروماني في المنطقة لم ينته، فبعد وفاة "مكيبسا" نجد أن "روما" تدخلت عديد المرات للتحكيم وحل مشاكل خلافته، وجاء أحد تدخلاتها بمشروع تقسيم نوميديا إلى شرقية يسيرها "أذربعل" وغربية تابعة ليوغرطة. وعلى الرغم من

أن الرومان خاضوا حرب ضد "يوغرطة" دامت سبعة سنوات، إلا أنهم لم يقوموا بإلحاق المملكة، بل قاموا بإسنادها إلى "غودا" مع الاكتفاء بضم مدينة "لبدة Lepcis Magna" لمقاطعة إفريقيا، مع منح ثلث مساحتها لملك موريطانيا "بوخوس الأول"، وهو ما يكشف كيف أن روما كانت تتعامل مع المملكة كأنها أراضيها الخاصة. استمر الوضع كما هو لغاية سنة 46 ق.م أين جرت معركة "تابسوس" التي أدت لهزيمة "البومبيين" وحليفهم "يوبو الأول"، فقرر "يوليوس قيصر" إلحاق مملكة نوميديا بالجمهورية، وتحويلها لمقاطعة ثانية عرفت باسم "إفريقيا الجديدة Africa Nova"، عكس المقاطعة الأولى التي أصبحت حينها تعرف باسم "إفريقيا القديمة Africa Vetus". هذا الأمر أدى لتوسع السيطرة الرومانية في المنطقة، ولم تبق سوى مملكة "موريطانيا" التي أصبحت ملكا رومانيا سنة 33 ق.م بموجب وصية "بوخوس". الحدود الغربية لهذه المقاطعة الجديدة تم حمايتها عبر إقطاعية حدودية (marche) تتمثل في تحصل "سيتيوس Publius Sittius"، المغامر الكامباني وحليف قيصر على مجال أربع مدن استقر به "سيتيوس" رفقة رفاقه المرتزقة: "قيرطا" (قسطنطينة)، "سكيكدة Rusicade"، "ميلة Milev" و"القل Chullu"، والتي المُنن التي عرفت "بالكونفدرالية=الاتحاد القيرطية"، والتي احتفظت بوضعية وامتيازات خاصة بعد وفاة "يوليوس قيصر".

بهذا يُمكن القول أن التوغل الروماني بلاد المغرب كان طويل زمنيا، وإلحاق المقاطعتين لم يعقبه احتلالها منهجيا (استيطان واستغلال)، الأمر الذي جعل "مومسن" يصف سياسة روما في بلاد المغرب خلال فترة 146-46 ق.م "بالسهر على عار المملكة البونيقية" أو "حراسة الجثة". لكن مع وصول "أغسطس" للسلطة بدأ الاستغلال فنجد أن المجال الأول الذي أخضع وتُحكم فيه بعمق من قبل الرومان هو المجال الذي عرف درجة عالية من التمدن الحضري: نواحي "قرطاجة"، "قيرطا"، "الكاف"، وكذلك اثني عشر مستوطنة لقدماء الجنود أنشأت من قبل "أوكتافيوس" في موريطانيا التي أسند حكمها للملك "يوبو الثاني" الذي سهر على رعاية وتنشيط الاستيطان الروماني بالمملكة.

2-3-التوسع في عهد السلالة اليوليو-فلاودية (27 ق.م-68م):

حكمت هذه السلالة الحاكمة الإمبراطورية أين برز منها خمسة أباطرة: "أوكتافيوس" الذي أصبح معروفا "بأغسطس" ما بين 27 ق.م-14م، ثم "تبريوس" (14-37م)، "كاليغولا" (37-41م)، "كلوديوس" (41-54م) وأخيرا "نيرون" (54-68م). يُمكن اعتبار عهد "أغسطس" بفترة وضع "الأساسات"، ففي سنة 29 ق.م قرر "أوكتافيوس" إعادة بناء "قرطاجة" وتشجيع الاستيطان بها، وتحويلها لعاصمة المقاطعة، فبرزت بذلك "قرطاجة الرومانية". بتاريخ 13 جانفي 27 ق.م صدر مرسوم تقسيم المقاطعات بين الإمبراطور ومجلس الشيوخ، والذي على أساسه برزت المقاطعات السيناتوروية التابعة لمجلس الشيوخ، والإمبراطورية التابعة للإمبراطور، وكذلك تم دمج إفريقيا القديمة بالجديدة، ما أدى لظهور مقاطعة "إفريقيا البروقنصلية" التي صنفت على أنها مقاطعة سيناتوروية، وهذا نظرا لثرائها، كونها هادئة وتمدنة، وللمصالح القوية للطبقة السيناتوروية بها، وقد رُبطت نوميديا بهذه المقاطعة. وعلى الرغم من صفتها السيناتوروية فقد احتفظت داخل إقليمها بقوات عسكرية ممثلة في الفيلق الأوغسطي الثالث ووحدات المساعدين، يقودها "البروقنصل"، وما يعد حالة استثنائية في كل المقاطعات السيناتوروية التي عادة ما تكون منزوعة الجيش. لقد تميزت فترة "أغسطس" بالصعوبات الأمنية العديدة، والتي تظهر من خلال الانتفاضات والقتال العديدة التي اندلعت ضد الوجود الروماني مستغلة الحرب الأهلية وتعيين "يوبو الثاني" كملك على موريطانيا ما بين سنوات 34-19 ق.م، والتي دفعت بالبروقنصيلة للتدخل وشن العديد من الحملات العسكرية التي كللت بتكريمهم باحتفالات مواكب ونياشين النصر. أشهر هذه الحملات هي حملة "كورنليوس باليوس" (21-19 ق.م) التي اختلف حول مداها: إقليم طرابلس، أو ربما وصلت للنيجر، والأصح أنها كانت عبارة عن حملتين، واحدة وصلت لغاية بسكرة، والأخرى لغاية "جرمة" (عاصمة الغرامنت)، وبالتالي فإن العدو الذي استهدف هو "الجيتول" والغرامنت. بعد هذه الموجة برزت موجة ثانية من الاضطرابات ما بين 4 ق.م إلى 6-8م تدخل فيها الجيش ضد المارميد في "قورينائية"، الغرامنت، الناسمون (Nasamons)، الموزولامي (Musulames)، وبالأخص ضد "الجيتول" (6-8م)، هذه الحرب الأخيرة أدت إلى وضع

أول نظام دفاعي الذي يطلق عليه اسم "النظام الدفاعي للظهير التونسي" لحماية المقاطعة من أنصاف-الرحل (semi-nomades)، وكذلك لتنصيب مقر قيادة الجيش "بحيدرة" (Ammaedara) في عمق أراضي الموزولامي.

بعد وفاة "أغسطس" انتقلت السلطة إلى "تيريوس" الذي برزت في عهده موجه جديدة من الاضطرابات الكبرى عرفت باسم "حرب تاكفاريناس" (من 17 إلى 24م) التي قادها "تاكفاريناس" المنحدر من قبيلة الموزولامي، والذي كان يعمل ضمن وحدات المساعدين، حيث استطاع أن يجمع حوله كونفدرالية قبلية معتبرة تضم: الموزولامي، الجيتول بجنوب البروقنصلية، الكينثيين المنتشرين في السيرت الصغير، وصولاً للمور بقيادة "مازيبا"، وفيما بعد "الغرامنت". سبب الانتفاضة نوقش بقوة، استبعدت فيه الأسباب القومية مع عدم التقليل من أهمية الإحساس الوطني الرفض لسياسيات روما الهادفة لرومنتهم، الدافع الآخر هو أن الموزولامي ينتمون إلى عالم "أنصاف الرحل"، والذي سعت روما للتحكم فيه مع تثبيتها لمستوطنين جدد على الأراضي التي يسلكونها، ما أدى لدفعهم نحو الصحراء، نضيف لهذا تهيئة طريق "قابس-حيدرة" مروراً بقفصة الذي جسد سياسة التحكم والمراقبة الفعلية لتحركاتهم، والذي يُمكن أن يضاف له طريق آخر من "لبدة" إلى الداخل الليبي. لمواجهة هذه الانتفاضة الكبرى الممتدة من إقليم طرابلس إلى منطقة "قيرطا" تمت الاستعانة بالفيلق الإسباني التاسع، وبدعم الملكين "يوبو الثاني" و"ببليموس": دامت الحرب 07 سنوات تولى فيها أربعة بروقنصليّة قيادة العمليات، وانتهت في الأخير بهزم "تاكفاريناس" واعتقاله في "سور الغزلان" (Auzia). كان لهذه الحرب نتائج هامة على المنطقة: أجبر المهزومون على الانتقال أو الاستقرار، مع اندماجهم التدريجي في الحضارة الرومانية، كما استأنف الرومان مشاريع الطرق وشرعوا في عمليات مسح كبيرة للأراضي أفضت إلى إلحاق ما مساحته 29600 كلم².

بعده وصل الحكم إلى "كاليجولا" (37-41م) الذي عرفت ولايته حدثين هامين، واللذين يظهران أنهما مستقلين، لكن في الواقع هما جد متصلين، الأول هو سحب الصلاحيات العسكرية (قيادة الفيلق الأوغسطي الثالث) من البروقنصل وإسنادها للمفوض الإمبراطوري، وبالتالي نُصّب على رأس الجيش سيناتور لكنه يُختار من الإمبراطور، وهو القرار الذي خلق إقليم "نوميديا العسكرية" التابع للبروقنصلية، والذي لم يتحول لمقاطعة قائمة إلا في عهد الأسرة السوربية. القرار الثاني هو إلحاق مملكة "موريطانيا" من خلال اغتيال "ببليموس" أواخر سنة 39م-بداية 40م، وهذا لدوافع قدمت حولها الكثير من الآراء، يبقى أقواها الدافع الاقتصادي، فالإمبراطور لم يكن راضياً على احتكار الطبقة السيناتورية لثروات بلاد المغرب، وأراد أن يخلق "توازن" نفوذ بالمنطقة باعتبار أن "موريطانيا" تحولت إلى مقاطعتين إمبراطوريتين. أدى هذا الاغتيال لبروز انتفاضة قادها أحد مُعتقي "ببليموس" يُدعى "أيديمون" الذي استند على بقية المعتقين، وهيج الموريون ضد "الرومان"، والتي انضم لها "أنصاف الرحل"، وبعد وفاة "كاليجولا" تكفل "قلوديوس" بمحاربتها لغاية تحقيق الانتصار في أواخر سنة 44م، كما تم الانتصار على الثائر الموري "سالابوس Salabos". أثناء اخماد هذه القلاقل قرر "قلوديوس" سنة 42م تقسيم موريطانيا إلى مقاطعتين هما: موريطانيا القيصرية، والتي عاصمتها "قيصرية=شرسال"، وموريطانيا الطنجية (عاصمتها طنجة)، وكلاهما مقاطعتين إمبراطوريتين. في 44-46م تدخل "غالبا Galba" كبروقنصل لإفريقيا لإخماد تمردات للموزولامي وجيرانهم الجيتول، وكذلك المور. في الأخيرة فترة "نيرون" تميزت بالاستقرار على العموم، مع بعض المناوشات في نواحي "شمتو" أدت لمقتل جندي من الفيلق، ولعل الحدث الأبرز والأشهر في عهده هو قيامه بقتل ستة كبار مُلاك للعقار يملكون نصف أراضي (ager publicus) المقاطعة الإفريقية، والاستحواذ عليها لصالحه. وفي عهده قرر أن تأخذ بلاد المغرب مكانة مصر في إنتاج القمح، فأصبحت تزود روما بـ 3/2 من الأتونا (توفير الغذاء السنوي)، والثالث المتبقي تتكفل به مصر. لتدفع السياسة الاستبدادية لنيرون لبروز ثورة ضده سنة 68م، التي عرفت بسنة الأباطرة الأربع، سمحت في الأخير لوصول "واسباسيانوس" للعرش وتأسيسه للأسرة "الفلاوية Flaviens"، وخلال هذه السنة قاد قائد الفيلق الأوغسطي الثالث "قلوديوس مافر" محاولة انفصالية عن الإمبراطورية سَك فيها عمالاته، شكل فيلق ثاني، قطع القمح عن روما، استولى على قرطاجة وبايعته "صقلية"، لكن كان مصيرها الفشل، وبدوره حاكم موريطانيا القيصرية "لوقيوس ألبينوس" كانت له محاولة انفصالية فاشلة.

2-4-التوسع في عهد الأسرة الفلاوية (69-96م):

حكم في هذه السلالة الحاكمة ثلاث أباطرة هم: "واسباسيانوس" (69-79م)، "تيتوس" (79-81م)، و"دوميتيانوس" (81-96م). حول هذه الفترة يعتبر "م. لوغلي Marcel le Glay" أن "بلاد المغرب كانت "بونيقو-رومانية"، ثم فيما بعد "رومانو-بونيقية"، ولم تصبح إفريقيا الشمالية رومانية فعلا إلا في عهد "الفلاويون"، وهي شهادة عن الدور الكبير الذي لعبته هذه الأسرة في نشر الرومنة و"إنهاء البونقة" على نطاق واسع بالمقاطعات والمجتمعات، كما اعتبر ذات الباحث أن أعمال الأسرة أحدثت تحولات كبرى في الميادين الأساسية، الحياة العامة والخاصة للأفارقة. في عهد "واسباسيانوس" بدأت الأعمال مع هزم "الغرامنت" سنة 70م مجددا واكتشاف طريق مختصر يوصل لعاصمتهم "جرمة"، بداية مشاريع إنجاز الطرق الكبرى والاستراتيجية، ترسيم الأراضي بين القبائل وأملاك الدولة، وبين القبائل فيما بينهما، التحكم أكثر في أنصاف الرحل وتدشين مشروع "توطين القبائل" عبر سياسة "الحصر والتجميع cantonnement". كما تم نقل مقر قيادة الجيش من "حيدرة" إلى "تبسة" سنة 75م، وهو ما عُد مؤشرا على بداية المخطط الروماني للسيطرة على الأوراس، والذي برز مع التواجد الروماني في "لامبايزيس=تازولت"، "خنشلة"، "حمام الصالحين" و"زوي" (في عهد هذه الأسرة).

في عهد "دوميتيانوس" تواصلت العمليات التوسعية والاستكشافية: فوجد المفوض "سبتميوس فلاقوس" انطلق من بلاد الغرامنت ووصل إلى بلاد الأثيوبين بعد مسيرة 03 أشهر ما بين 77-89م، في سنة 87م هاجم المفوض "سوليوس فلاقوس" قبيلة "الناسمون" وتمكن من هزمهم وفرض السيطرة الرومانية أكثر على إقليم طرابلس، وما بين 83-92م غادر شخص محل نقاش يدعى "يوليوس ماترنوس" مدينة "لبدة"، مرّ على "جرمة"، ليصل إلى بلاد "أجيسيمبا" التي يتكاثر فيها حيوان وحيد القرن. ما بين 83-86م تدخل قائد الكتيبة الحضرية الأولى الموجودة في "قرطاجة" "ق. ويليوس روفوس" في موريطانيا تحت لقب "زعيم الجيش الإفريقي والنوميدي" لمهمة تستهدف محاربة المور، أو تقييد حرية تنقلهم.

2-5-قرن الأنطونيون=Les Antonins (96-192م):

تشكل هذه الأسرة الحاكمة من ستة أباطرة يطلق عليهم البعض تسمية "الأباطرة الست الصالحون"، وهذا لأن الإمبراطورية الرومانية وصلت في عهدهم إلى أوج توسعها وقوتها، أو لنقل أن "العصر الذهبي" للإمبراطورية كان في عهدهم، لهذا لم يتردد "لوغلي" في القول: "لقد حصد الأنطونيون في إفريقيا ما زرعه "الفلاويون". الأباطرة الستة هم: "نيرفا" (96-98م)، "ترايانوس" (96-117م)، "هادريانوس" (117-138م)، "أنطونيوس بيوس" (138-161م)، الإمبراطور الفيلسوف "ماركوس أوريليوس" (161-180م)، وأخيرا "كومودوس" (180-192م). البداية مع "نيرفا" الذي لم تسمح فترة حكمه القصيرة بإنجاز أعمال كبيرة، فعُرف بأنه شيد مستوطنة "سطيف" (Sitifis) كمدينة لقدماء الجنود، مستوطنة "جميلة" (Cuicul)، ومدينة معارفنا حولها أقل هي "مونص [..] Mopth" الواقعة غير بعيد عن "جميلة". التوسعات الكبرى حدثت في عهد "ترايانوس" الذي شيد طريق طوق الأوراس (من "بصرياني" إلى "بسكرة" مروراً بتادرت)، شيد مستوطنة "تيمقاد" سنة 100م، معسكر "بصرياني" (قرب نقرين) في 104-105م، وفي بداية حكمه (ما بين 102-116م) تم تحويل مقر قيادة الجيش من "تبسة" إلى "لامبايزيس"، هذه الأخيرة سيبقى الفيلق بها بصفة نهائية وتحولت لعاصمة مقاطعة "نوميديا". في عهده تم التحكم بشكل شبه تام على النمامشة وعلى الهضاب العليا (شمال الأوراس)، وهو ما يمثل إلحاق ما مساحته 100 ألف كم²، كما شهدت "موريطانيا" إنجاز شبكة طرق وحافظت "شرشال" على مركزها العسكري الهام. تواصلت عملية ترسيم الأراضي بشكل مكثف في عهده، واستهدفت ضبط أراضي قبائل محلية: "الموزولامي"، "السوبوريور Suburbures"، "الأرزوغيين Arzuges"، والأراضي بين ملكيات إمبراطورية وملكيات خاصة، أراضي المدن وأراضي القبائل.

في عهد "هادريانوس" شهدت بلاد المغرب أول زيارة لإمبراطور روماني سنة 128م، والذي مر على قرطاجة، تبسة، وفي بداية جويلية تواجد في جنوب إفريقيا، وبالتحديد في ناحية "الأوراس"، فقام بتفقد الفيلق ومختلف وحدات المساعدين، وألقى خطابات على مختلف القوات كشفت أن هدف الزيارة هو تفحص مستوى تحضير الجيش والتعرف على الاستعدادات العسكرية للقوات وحالة التدريبات والتمرنات. في عهده تم تشييد معسكر "القصبات Gemellae" على ضفاف وادي جدي (قرب مليلي ببسكرة) (126م البناء الأولى ثم في 132م التشييد النهائي). لم تشهد فترة "أنطونيوس بيوس" أعمال عسكرية وتوسعات هامة، فنجد أن مفرزة قدمت سوريا تابعة للفيلق السادس المُدرع (legio VI Ferrata) سنة 145م لإنشاء طريق من بسكرة إلى "لامبايزيس" عبر "تيغانمين"، كما وصل الجيش الروماني إلى "مجدل" (47 كلم غرب بوسعادة). في عهد "ماركوس أوريليوس" بدأ تصاعد تأثير الأفارقة داخل مجلس الشيوخ الروماني، فهذا الإمبراطور تتلمذ على يد "فرونتون القيرطي"، واشتهرت فترة حكمه بالحملة التي قادها الجيش إلى "آقناب" بجنال عمور سنة 174م في إطار مهمة مراقباتية واستشكافية، كما شهدت ولايته بروز خطر "الموريون" على مقاطعة "بيتيكا" الإسبانية التي هاجمها مرتين، واشتهرت ولايته "بلوحة سيدي علي بوجنون Tabula Banasita" المؤرخة بسنة 177م، والتي تسلط الضوء على الإجراءات الإدارية المتبعة عند منح المواطنة الرومانية بلقب فردي، كما توضح نتائج منح هذا الامتياز. في الأخير عهد "كومودس" تميز بداية الاهتمام الروماني بالسيطرة والتوسع في الجنوب التونسي.

2-6-عهد الأسرة السورية (193-235م):

مؤسس هذه الأسرة هو "سبتموس سويروس" الذي هو إمبراطور إفريقي باعتباره ولد في مدينة "لبدة" سنة 145م من عائلة بونيقية، ما جعل بعض المؤرخون يشبهونه "بحنبعل جديد على عرش القيصرية"، والذي في عهده وصل الرومان إلى ذروة توسعاتهم ببلاد المغرب. أباطرة هذه الأسرة هم "سبتموس سويروس" (193-211م)، "كراكلا" (211-217م)، "إيل جبل" (218-222م)، "سويروس ألكسندر" (222-235م). في عهد هذه الأسرة تعاضمت مكانة الأفارقة داخل الإمبراطورية حيث شكلوا "لوبي ضغط" قوي هو من أوصل "سبتموس" للعرش حسب تحليلات البعض. في عهده وصل الرومان إلى أقصى نقطة، وهي "مسعد Castellum Dimmidi"، وتوسعوا في الجنوب التونسي أين وصلوا إلى "سي عيون"، أما في الغرب الليبي فنجدهم وصلوا إلى "بونجم"، "القرية الغربية، غدامس، قصر زرزي، عين ويف (كلها معسكرات بليبيا الحالية). لتفقدنا زار الإمبراطور بلاد المغرب سنة 203م. كما اتسعت السيطرة الرومانية في منطقة الحضنة التي عمل الرومان على تميمها. كما زاد التوسع في موريطانيا مع إنشاء طريق عرضي بالجنوب يكرس التواجد العسكري الروماني بالهضاب العليا بهدف التحكم في تحركات الرحل، ومحاور الانتجاع، خصوصا عبر التواجد في مصادر المياه. عهد الأباطرة الآخرون لم يشهد أي توسعات رومانية، وبالتالي فإن الرومان اكتفوا بالأراضي التي تم إلحاقها في عهد هذه الأسرة، والذي تعرف باسم "إفريقيا النافعة Africae utilis": أصبحت أراضي روما تمتد في الجنوب من إقليم طرابلس في الشرق، مروراً بقابس، شط الفجاج، واحتي نفطة وتوزر، الأوراس وجنوبه (الزيان: نقرين، بادس، مليلي والدوسن)، ثم الحضنة و"مسعد"، وصولاً إلى تيارت وفرندة، أولاد ميمون، تلمسان ومغنية، وصولاً إلى جنوب "الرباط" بالمغرب الحالية.

3-التنظيم السياسي والعسكري:

3-1-التنظيم السياسي:

يُمكن تقسيم التنظيم السياسي لبلاد المغرب خلال الفترة الرومانية إلى ثلاثة مراحل:

1- خلال الفترة الجمهورية: 146-27 ق.م: في هذه الفترة كان هنالك مقاطعتين، الأولى هي "مقاطعة إفريقيا"، والتي عرفت منذ 46 ق.م باسم "إفريقيا القديمة" التي تمتد من "طبرقة" شمالاً إلى "طينة Thenae" في الجنوب-الشرقي. حاكمها يتم اختياره من ضمن "القضاة السنويين" (praetors)، أو "قضاة سنويين" سابقين (propraetor). ومنذ عهد

"سيلا" (82-79 ق.م) أصبح يحمل لقب "البروقنصل". يقيم الحاكم في "أوتيك"، مهامه بالأساس هي حفظ النظام العام ويمارس سلطته على مساحة تتراوح ما بين 20-25 ألف كلم²، يسهر على تحقيق العدالة، تولى المسؤوليات المالية، وأخيرا "سلامة الآلهة". في سنة 46 ق.م ظهرت مقاطعة "إفريقيا الجديدة" التي أقيمت على أنقاض مملكة "يوبو الأول"، والتي يمتد مجالها من الخندق الملكي شرقا لتمتد نحو الجنوب والشرق لغاية أن تصل إلى الحدود مع إقليم "قورينائية"، وتمتد غربا لغاية "قيرطا" والقل (الكونفدرالية القيرطية التي منحت للمرتزق "سيتيوس"). مثلت مدينة "زاما" عاصمة لها، وهذا التقسيم بينهما ألغي في الواقع سنة 36 ق.م. كان أول حاكم لها هو المؤرخ "سالوستيوس"، ونظرا للحروب الأهلية التي شهدتها "روما" بعد اغتيال "يوليوس قيصر" فقد تغير سيد إفريقيا عديد المرات (ماركوس أنطونيوس، "ليبيدوس"، ثم أوكتافيوس)، وكانت مسرحا لنزاعات بين حاكمي المقاطعتين في سنوات 44-36 ق.م، ليستقر الأمر بعد وصول "أوكتافيوس" للعرش التي أحدثت عديد التغييرات عليهما.

2- خلال العهد الإمبراطوري الأعلى (27-284 ق.م): نميز أربعة مقاطعات في هذه الفترة، مقاطعة سيناتوروية وثلاث مقاطعات إمبراطورية:

إفريقيا البروقنصلية: بموجب مرسوم 13 جانفي 27 ق.م تم تقسيم المقاطعات بين الشعب الروماني الذي يمثله مجلس الشيوخ، و"أوكتافيوس" الذي أصبح "أغسطس Augustus" (أول إمبراطور روماني) منذ 16 جانفي 27 ق.م. فتم إقرار دمج إفريقيا القديمة والجديدة في مقاطعة واحدة، وأضيفت لهما الأراضي التي كانت تابعة سابقا لسيتيوس (الكنفوديرالية القيرطية). حاكم هذه المقاطعة التي صنفت على أنها "سيناتوروية" يُعين نظريا من قبل مجلس الشيوخ عبر "القرعة"، وهو غير مسؤول سوى أمامه. لكن هذا المجلس يلجأ إلى الإمبراطور في الظروف الاستثنائية (الحروب) لاختيار البروقنصل، وهي العملية التي يطلق عليها "التعيين خارج القرعة". هذا البروقنصل يُشترط فيه مسار هرمي شرفي (cursus honorum): المراقب المالي، الإيدل (القيم على صيانة المباني والمهرجانات)، مُدافع عن طبقة العامة، القاضي السنوي (برايتور)، ثم قنصل، وبعد مرور 05 سنوات على تولي القنصلية يُختار عبر القرعة. يعد هذا المنصب مرموقا، فصاحبه يتحصل على راتب سنوي قدره مليون سستريوس سنويا. دوره الرئيسي الحفاظ على النظام، مراقبة تحصيل الضرائب، السهر على النفقات الضرورية، إنجاز أشغال الصالح العام، إنجاز وإصلاح الطرقات، مسؤول عن السير الحسن لخدمة البريد والنقل الإمبراطوري (cursus publicus)، رعاية الاحتفالات الدينية وحماية الآلهة والمرافق الدينية. من حيث المبدأ المقاطعات السيناتوروية هي مقاطعات بلا جيش (inermes)، لكن سنجد أن هذه المقاطعة شذت عن القاعدة، فما بين 27 ق.م-39م احتفظ البروقنصل بثلاثة مفوضين (légats) يساعده في مهامه: واحد في قرطاج، آخر في "هييون (عنابة)"، والثالث كلف بقيادة الفيلق الأوغسطي الثالث، فكان البروقنصل يقود الحملات العسكرية ويحصل على شرف مواكب ونياشين النصر، يدمغ العملات المخصصة لدفع رواتب الجنود، يطبق العقوبات العسكرية وغيرها. رغم سحب الصلاحيات العسكرية من البروقنصل إلا أنه احتفظ بقوات عسكرية ممثلة في كتيبة من الفيلق الأوغسطي الثالث، وزود بكتيبة حضرية (رجال شرطة). بخصوص مجالها فإنه من الصعوبة ضبطه لأنه كان متغير بحسب التوسعات الرومانية، ليستقر في القرن الثالث على كونه يشمل: إقليم طرابلس (تريبوليتانيا)، تقريبا كل تونس الحالية، جزء من الشرق الجزائري: مدن كهبيون، تبسة، مداوروش.

نوميديا: ما تبقى من مقاطعات هي كلها تابعة للأمير (الإمبراطور)، على أننا نميز بين نوعين من المقاطعات الإمبراطورية؛ الكبرى، ويتم إسنادها لمفوض، خاصة إذا كانت تأوي فيلق أو أكثر، في حين المقاطعات الإمبراطورية الصغيرة التي لا تأوي سوى المساعدين تسند لوكيل الإمبراطوري. حاكم المقاطعة الإمبراطورية يُعين من قبل الإمبراطور، ويكون من الصف السيناتوروي إذا كان مفوضا، والصف الفرساني بالنسبة لوكيل الإمبراطور. يُمكن القول أن نوميديا ظهرت سنة 39م مع قرار "كاليغولا" بسحب الصلاحيات العسكرية من البروقنصل وإسنادها للمفوض الذي أصبح يحمل لقب "المفوض الإمبراطوري ذو الصلاحيات البريتورية legatus Augusti propraetore"، ويشترط فيه لتولي هذا المنصب أن يكون سيناتورويا، له مسار هرمي شرفي يصل لتقلد "القاضي السنوي=البرايتور"، ثم بعد شغله لوظيفة

المفوض بإمكانه أن يصبح قنصلا (قنصل عادي أو قنصل إكمال المدة). هذا المفوض هو مستقل عن البروقنصل، ويسير منطقة عسكرية نسميها "نوميديا العسكرية" كانت في البداية حول "حيدرة"، ثم حول "تبسة"، ثم في 102-116م مع تحول الجيش إلى "لامبايزيس" أصبحت هذه الأخيرة هي عاصمة المقاطعة. مثلت "الكونفدرالية القيرطية" الجزء الشمالي من المقاطعة التي لم تظهر بشكل رسمي إلا في عهد "سبتيوس سويروس" ما بين 193-208م، وعلى الأرجح سنة 197م. تمتد من حدود إفريقيا البروقنصلية شرقا إلى الوادي الكبير غربا بحيث تكون "جميلة" تابعة لنوميديا و"سطيف" تابعة للقيصرية، أما جنوبا فتشمل الأوراس والزيان وصولا إلى "مسعد".

موريطانيا القيصرية والطنجية: تم تشكيل المقاطعتين كما تمت الإشارة له جاءت في أعقاب قتل "ببليوموس"، كلاهما مقاطعتين إمبراطوريتين، ويحكم كل واحدة منهما وكيل للإمبراطور (procurateur)، ينتمي للفئة الفرسانية، يحصل كل منهما على راتب مئتين (200 ألف سستريوس). يقيم الأول في "شرشال"، والثاني عاصمته الرسمية هي "طنجة" التي أطلق اسمها على إقليم المقاطعة، على أنه يعيش غالبا في مدينة "قصر فرعون Volubilis"، ولم يكن بحوزتهما سوى وحدات مساعدين توظف لحماية المقاطعة. مسألة الحدود طرحت للنقاش في عديد المرات: التخوم بين نوميديا والقيصرية لا نمتلك حولها أي طريق بري يفصل المقاطعتين، لكن من غير المستبعد وضع "مسلك بري" يمتد من الوادي الكبير بالقرب من "جميلة" صوب الجنوب. أما الحدود بين الموريطانيتين، فالتصور العام هو كون وادي "ملوية" حد فاصل بينهما، لكن في الواقع كانت المسألة أكثر تعقيدا، تمت فيها مراعاة مسائل اقتصادية، عسكرية وإدارية. سلطات الحكام تخضع للعديد من الضوابط، فالإمبراطور بإمكانه التدخل بأشكال مختلفة، خصوصا في المقاطعات التي يتواجد بها "المفوضون الإمبراطوريون". مدة ولاية هؤلاء الحكام هي سنة واحدة بالنسبة للبروقنصل، بالنسبة للمفوضون ووكلاء الإمبراطور فهي متغيرة: سنة، سنتين، إلى ثلاث سنوات أحيانا، وكان بحوزة كل الحكام ديوان خاص، ومجموعة معتبرة من الموظفين لمساعدته على تأدية مختلف مهامه.

3- في العهد الإمبراطوري الثاني (284-439م): بعد أحداث 238م وبروز الأناكرية (اللاسلطوية) التي عمت الإمبراطورية ما بين 238-284م، ما أدى لضعف السلطة وضروريات الإصلاح، من هنا جاءت حتمية تقسيم المسؤوليات بين مختلف الموظفين. حول هذا تشير قائمة "فيرون" المؤرخة بعهد "ديوقليتيانوس" مع تضمينها أخطاء بأن بلاد المغرب قسمت إلى سبعة مقاطعات:

إفريقيا البروقنصلية: قُسمت إلى ثلاث مقاطعات: 1- بروقنصلية زغوان (Zeugitane) تضم دوقيات قرطاجة وبنزرت، وظلت "قرطاجة" عاصمتها، ويحكمها "وكيل vicaire"، 2- المزاق (Byzacène): هي منطقة الساحل الغربي لتونس، "حضر موت" عاصمتها، وتمتد لتشمل أراضي السباسب في تونس الداخلية. 3- إقليم المدن الثلاث (تريبولينانيا): عاصمته لبدة، وتشمل الأراضي الممتدة من الجريد إلى أعماق إقليم المدن الثلاث.

2- نوميديا: قسمت بدورها إلى "نوميديا القيرطية Numidia Cirtensis"، وهي نوميديا الشمالية، وعاصمتها "قيرطا"، أما "نوميديا العسكرية Numidia militiana" فتشمل نوميديا الجنوبية ومثلت "لامبايزيس" عاصمة لها.

3- موريطانيا: تم إلحاق مقاطعة موريطانيا الطنجية بدوقية (=أبرشية) إسبانيا التي يقيم وكيلها في "مريدا"، في حين قسمت القيصرية إلى "موريطانيا السطايفية" (عاصمتها سطيف Sitifis)، و"موريطانيا القيصرية" عاصمتها شرشال.

بالنسبة للحكام فإنهم حملوا لقب "البروقنصل" في "زغوان"، لقب "ذو الحزم الست" (sexfascialis) في نوميديا بعد سنة 320م باعتبار أن تقسيم النوميديتين لم يدم طويلا حيث أعيد توحيدهما سنة 313م، واختيرت "قيرطا" عاصمة للمقاطعة كمكافأة لإفشالها انقلاب "دومتيوس ألكسندر" -دمرت المدينة وأعاد "قسطنطين" بناءها ليصبح اسمها منذ تلك الفترة لليوم "قسطنطينة". بالنسبة لبقية المقاطعات حمل حكامها لقب "الرئيس praeses"، ويمكننا اعتبارهم جميعا بمثابة "قضاة iudices". بخصوص التقسيم يرى الباحثون استنادا على دراسة النقوش أن تجزئة مقاطعات

إفريقيا البروقنصلية كانت متزامنة في تاريخ يتراوح ما بين 303-294م، بينما الانقسام بين موريطانيا القيصرية والسطايفية حدث سنة 303م، وهذا لا يعني استبعاد فرضية وضع كل هذه التقسيمات في سنة واحدة.

2-التنظيم العسكري:

لتأمين وجودهم بالمنطقة المغاربية ولحماية مصالحهم استند الرومان على جيش يحارب وأنظمة دفاعية تراقب. في الفترة الجمهورية لا نمتلك مصادر تشير للوجود العسكري في مقاطعة إفريقيا، لكن الأكيد أنه كانت هنالك قوات متواضعة تسهر على التمون الغذائي لروما والتحصيل الضريبي وحفظ النظام العام. حسب البعض فإن حماية إقليم المقاطعة كان مضمونا عبر وحدة عسكرية دائمة (على الأقل فيلق) ترابط في "أوتيك"، ونمتلك إشارة أدبية مؤرخة بسنة 125ق.م عن وجود جيش قوامه 30 ألف جندي (رقم نشكك فيه)، لكن الأكيد أنه خلال فترة الحروب (يوغرطة، مختلف الحروب الأهلية) تزايدت عدد القوات، فمثلا في عهد الحكم الثلاثي كان تحت إمرة "ليبيدوس" أربعة فيالق.

2-جيش إفريقيا البروقنصلية ونوميديا:

كما أشرنا فإن البروقنصل احتفظ بالصلاحيات العسكرية ما بين 27 ق.م-39م، خلالها كان يقود فيلق بالأساس هو "الفيلق الأوغسطي الثالث legio III Augusta"، وفي بعض السياقات الحربية أضيفت له فيالق أخرى. لا يزال من غير المعروف تاريخ بداية تواجد الفيلق، لكن من المؤكد أنه في سنة 05م كان بإفريقيا، وهو الفيلق الوحيد في بلاد المغرب الذي ظل يدافع عنها. في سنة 39م فقد البروقنصل قيادة الفيلق التي أسندت للمفوض الإمبراطوري. على الرغم من ذلك، احتفظ البروقنصل في البداية بوحدة مساعدين تضمن له الحراسة الشرفية وحفظ النظام في المقاطعة. بعد سنة 69م عوضت بالكتيبة الحضرية الثالثة عشر، والتي عوضت بعدها بالكتيبة الحضرية الأولى في بداية حكم "هادريانوس"، ثم منح له كذلك كتيبة من الفيلق الأوغسطي، وخلال القرن الثاني كان بحوزته "الكتيبة الفلاوية الثانية للأفارقة" التي تواجدت في "شمتو" (مناجم الرخام النوميدي)، وفي بعض الحالات تُرسل له مفارز من مقاطعات أخرى، وهو ما يعني أنه كان بحوزته على الأقل حوالي 1000 جندي بشكل دائم.

كما أشرنا، منذ سنة 39م أصبحت معظم قوات الجيش تحت قيادة المفوض، والذي أحيانا يتحصل على "مفارز" من مقاطعات أخرى. يقود المفوض الفيلق الأوغسطي الثالث (كل أفراده مواطنون رومان، وعدد أفراده 5000 جندي) الذي يحمي المقاطعتين، وإلى جانبه وحدات المساعدين (أفرادها هم أجانب أحرار يتحصلون على المواطنة الرومانية بعد نهاية الخدمة)، والذين يتحصلون على رواتب أقل، واحترامهم أقل، وحتى عتادهم، عددهم: ثلاثة أجنحة (alae)-فرق خيالة- (كل جناح بـ 480 جندي)، 13 كتيبة (cohortes)-فرق مشاة أو فرق مختلطة بين مشاة وخيالة، وكل كتيبة بـ 480 جندي-، وفصيلتين (numeri)-فرق متخصصة في بعض الأسلحة، وعددها متغير (من 200 إلى 800 جندي في بعض الأوقات)، على أن هذه القوات لم تخدم في المقاطعتين في وقت واحد، فوصل عددها إلى 10 آلاف جندي كأقصى حد. بالعودة إلى الاستراتيجية العسكرية فإنه نظرا لغياب الانشاءات العسكرية الواسعة التي نظريا تعبر عن "استراتيجية كبرى"، فإنه يظهر أن الضباط الرومان قاموا بتجميع مجموعة من المواقع الدفاعية المحددة في ناحية ما، والتي مجموعها يشكل ما يُطلق عليه "أنظمة دفاعية" أو لنقل بالأحرى "منطقة عسكرية"، وهي التسمية المطابقة للمصطلح اللاتيني "الليمس limes" الذي وظف كثيرا من قبل الأثريين، على أن القدماء لم يستخدموه إلا نادرا وخلال فترة متأخرة. هذه المنطقة الثنائية الأبعاد تتشكل من ثلاثة عناصر: أنظمة دفاعية خطية (fossatum)، دفاعات مُنظمة (معسكرات وأبراج)، وأخيرا شبكة الطرق.

في المقاطعتين حافظت "قرطاجة" على دورها وأهميتها العسكرية، فهي مقر البروقنصل. في أواخر القرن الأول قبل الميلاد ظهر النظام الدفاعي للظهير التونسي (معسكرات قرطاجة، باجة، سيدي عسن)، ثاني نظام دفاعي وضع في بدايات القرن الأول ميلادي، ومثلت "حيدرة" مركزه التي تحولت لمقر قيادة الجيش في 6-14م، وهذا إلى جانب معسكرات: "تالة"، معسكر وادي "باغيدا" (وادي غامض ذكر في حرب "تاكفاريناس). في عهد "قلوديوس" برز النظام

الدفاعي القيرطي المشكل من حاميات: قيرطا، عين فوة، وادي العثمانية، عين الكرمة، ميلة، برج القصر و"جميلة". في بداية عهد "واسباسيانوس" برز النظام الدفاعي للشمال الأوراسي مع نقل مقر قيادة الجيش من "حيدرة" إلى "تبسة" سنة 75م، إلى جانب حاميات: زوي، خنشلة، حمام الصالحين و"لامبايزيس". خلال عهد الأنطونيين والسوريين أصبح هنالك أربعة أنظمة دفاعية فقط، هي:

1-النظام الدفاعي الأوراس: مقره "لامبايزيس" التي تواجدت بها ثلاث معسكرات، معسكر 81، معسكر المساعدين (ميدان المناورات والتدريبات)، والمعسكر الكبير التي يتواجد به مبنى مقر القائد الأعلى للجيش (praetorium) الذي يمثل حاكم مقاطعة نوميديا. وحولها جملة من المراكز: "خنشلة"، حمام الصالحين، المعذر، العروق (كلاهما بشمال باتنة)، "زراية" (بسطيف)، القنطرة، برج الرصد بقصر سيدي الحاج وخربة البرج (جنوب القنطرة بكليوميترات غير بعيد عن ما يسمى "منبع الغزلان")، "جبل الملح"، و"معسكر ملتقى الواديين، وكلاهما قرب لوطاية، ونضيف لهم أنظمة دفاعية أشهرها: النظام الدفاعي الخطي لجبال بوطالب، القنطرة ولوطاية.

2-النظام الدفاعي للصحراء النوميديّة: يتشكل من معسكر القصبات (Gemellae)-قرب مليلي-، معسكر "هنشير رقوبة سعيدة" قرب الجريد، بسرياني، احتمال وجود عسكري في "كاف الناجي"، "بسكرة Ad Piscinam"، تهودة، القهرة، عين الريش، وبالأخص في "مسعد"، وهو النظام الذي عزز بالنظام الدفاعي الخطي لساقية بنت كراس.

3-النظام الدفاعي لإقليم طرابلس الشرقي: برز في عهد "كومودوس"، ونصب في الجنوب التونسي ويهدف لمراقبة كل تحركات الرحل عبر التحكم في الممرات الحيوية. يضم السور التحصيني لهنشير مغارين (Hr Mgarine)، سيدي محمد بن عيسى، "رمادة"، الحصن الأمامي لسي عون.

4-النظام الدفاعي لإقليم طرابلس الغربي: تنتشر مراكزه في غرب ليبيا الحالية، وظهر بالأساس سنة 201م مع انشاء معسكرات "بونجم" الشهير للغاية بوثائقه التي سمحت لنا بالتعرف على الكثير من ميزات الحياة العسكرية للجيش الروماني، "القرية الغربية"، "غدامس"، وكلها معسكرات قريبة لأراضي "الغرامنت"، إضافة إلى مراكز: معسكرات واحتي "تاغريفت" و"ودان"، قصر زرزي، القرية الشرقية، عين ويف، وأخيرا عين العوينية.²

3-جيش موريطانيا القيصرية:

كما أشرنا لم يحكم وكلاء الإمبراطور سوى وحدات المساعدون، وتسمح لنا الشهادات العسكرية من التعرف على قوات هذه المقاطعة، إلى جانب الوثائق النقائشية. فتم التعرف على ستة أجنحة، 15 كتيبة، وفصيلتين، وبطبيعة الحال لم تكن هذه الوحدات بالخدمة في ذات الوقت، ما جعل تقدير تعددها يذهب لحوالي 5000 جندي إلى أقصى حد. كما لا بد أن نضيف لهم وحدات الأسطول المتمركز في "شرشال". في دراسة انتشار القوات يمكننا أن نميز بين تواجدهم بمعسكرات واضحة ومُدن الحاميات التي لم يكن لهم بها منشآت مقامة خصيصا للعسكريين. من أهم مدن الحاميات نجد العاصمة "شرشال" و"تيازة"، وكان التمرکز العسكري لا يزال بالأساس لغاية النصف الثاني من القرن الأول بالشريط الساحلي. مع "ترايانوس" و"هادريانوس" يمكن القول أن التوسعات بدأت أكثر بالمقاطعة مع تسطير طريق أكثر جنوبية، والذي تمت بجانبه بمعسكرات وتجمعات نُطلق عليها تسمية "المدن العسكرية". هذا النظام استكمل من قبل خلفاءهم لغاية نهاية القرن الثاني أين دفع "سبتميوس سويروس" حدود السكن أكثر إلى الجنوب، وتتشكل المراكز العسكرية من:

1-الساحل: نجد به: 1-مُدن الحاميات: شرشال وتيازة، سيدي بلعطار (Quiza) وتنس، 2-المعسكرات: الأندلسيات (castra Puerorum)، معسكر قرب وادي الداموس بتيازة يدعى "castra Germanorum".

² للاطلاع أكثر على الفيقل الأوغسطي الثالث، مدينة ومعسكرات "لامبايزيس"، وعلى هذه الأنظمة الدفاعية يمكن العودة إلى رسالتنا للماجستير الموسومة بـ "معسكر الفيقل الأوغسطي الثالث في لمباز 81-238م".

2-النظام الدفاعي لترايانوس-هادريانوس: 1-مُدن الحاميات هي: عين تموشنت (Albulae)، الخميس (Milliana)، مليانة (Zacchabar)، سور الغزلان (Auzia). 2-المعسكرات: عين الدفلى (Oppidum Novum)، البرواقية (Thanaramusa castra)، الشلف (Castellum Tingitanum)، "لهليل" (Ballene Praesidium)، المحمدية (Castrum Nova)، أولاد عباس (Tigava Castra)، "سيدي فغلول" (Gadaum Castra)، سور جواب (Rapidum).

3-النظام الدفاعي لسبتيوس سويروس: 1-مُدن الحاميات هي: عين تكرية، "سانق" (Vzinaza)، "تلمسان" (Pomaria). 2-المعسكرات: البنيان (ala Miliaria)، "خربة أولاد هلال" (Ala Sebastena)، "مغنية" (Numerus Syrorum)، أولاد ميمون (Altava)، "سيدي علي بن يوب" (Kaputtasaccura)، "تاخمرت" (Cohors Breucorum)، "تعراس" (Tatilti)، "تارمونت" (Ad Aras)، "تيمزون" (Lucu).

4-مراكز ما وراء الليمس: وهي معسكرات: عين بنت سلطان؟، عين بنية (Benia)؟، مزرعة رومانت (Ferme Romanette)؟، الخصرة (قرب البيض)، وأخيرا "مجدل" (على الأرجح هو معسكر بنوميديا).

4-جيش موريطانيا الطنجية:

بدوره حاكم هذه المقاطعة لم يكن بحوزته سوى وحدات المساعدون، لكن بإمكانه الحصول على تعزيزات فيلقية التي يقودها "من ينوب عن المفوض prolégat". في هذه المنطقة كانت الوضعية جد مختلفة مع امتلاكنا شواهد لثلاثة أنظمة دفاعية. أظهرت الخبرة في البداية للضباط الرومان بأن مدينة "قصر فرعون Volubilis" يتوجب إعطاؤها الأولوية الدفاعية، لذلك تحصلت المدينة على حامية وتم إحاطتها على الأقل بتسعة أبراج وأربعة قلاع. ثم شملت العملية حوض وادي "سبو" الذي استدعى حمايته. ليزر الأثريون في الأخير نظام دفاعي خطي يُسمى "خندق سالا fossé de Sala"، وساقية فرعون (في الأساطير العربية، الفرعون هو صاحب الفضل في الكثير من الأشغال). اليوم بفضل العديد من التنقيبات الأثرية أصبحنا نعرف الكثير من المراكز العسكرية: موقع مجهول بالقرب من وادي الفوارات (Tremuli)، عين الشكور، "بلاد تاكوارت" (Bled Takourart)، شالة (Sala)، "لالة جيلالية" (Tabernae)، سيدي عيسى=سوق الأربعاء، سيدي علي بن أحمد (Thamusida)، "سيدي علي بوجنون" (Banasa)، "سيدي موسى بوفري"، "سيدي سعيد"، "سوير" (Soueir/Frigidae)، "الصوير" (Ad Novas) وتمودة (في جهة "تطوان")، وكذلك قصر فرعون التي تواجدت به حامية. يعد معسكر "سيدي علي بن أحمد=تاموسيدا من أشهر معسكرات الطنجية حيث قدم لنا تنقيبات مثالية والكثير من المعطيات عن تنظيم المعسكرات الرومانية، يشغل مساحة 2.3 هكتار، وهو يكفي لإيواء كتيبة خمسمائة. تعرفنا على جيش المقاطعة عبر العديد من الشهادات العسكرية، إضافة إلى النقوش، وكلاهما كشفنا لنا وجود: 05 أجنحة، و18 كتيبة، ولا وجود لأي فصيلة، وبطبيعة الحال لم تتواجد هذه الوحدات كلها في وقت واحد، ويمكننا تقدير العدد الاجمالي في نواحي 5000 جندي، وعلينا أن نضيف لهذه القوات الدائمة تعزيزات فيلقية وثقت بتعيين "من ينوب عن المفوض".

كان للجيش الروماني في هذه المقاطعات الأربع اسهامات معتبرة في تثبيت الوجود الروماني، في نشر الرومنة عبر تجنيد الغير مُرومنين وتعلمهم للغة اللاتينية، وأيضا في ايصال الآلهة والمعتقدات الرومانية إلى مختلف المناطق. وبالجيش تحكمت روما في البلاد والعباد، فالجيش هو من كان يقمع التمردات، يشيد الطرق، يرسم الأراضي والحدود، يتأسس القبائل، يجبي الضرائب، يبني المدن ومختلف منشآت الصالح العام، وساهم الجنود المتقاعدون في زيادة الاستغلال الزراعي للمنطقة، لهذا نجد أن العديد من المدن الرومانية كانت إما مخصصة لاستقبال قدماء الجنود: تيمقاد، جميلة، سطيف، مداوروش، تبسة، عين زانة، زراية، وغيرها، أو بعضها ظهر بجوار المعسكرات: "سور جواب"، "نقرين"، "القصبات" ببسكرة، "لامبايزيس" و"مركونة".

4-معالم الحضارة الرومانية:

4-1- الحجارة: التجمعات الحضرية:

من الميزات الهامة خلال الفترة الرومانية هي توسع الحركة الحضرية والعمرانية، والتي نظمت بترسانة من القوانين والتنظيمات، فالدولة الرومانية كانت تتدخل لإنشاء مستوطنات للمستوطنين، وهي من تقوم بعملية ترقية المدن، وطبعا أعاد الرومان شغل وتهيئة المدن البونيقية والنوميديو-موريطنانية، وقد لعبت أعمال الإحسان (évergétisme) دورا هاما في ازدهار مدن الرومان بالمنطقة، فهؤلاء المحسنون (المترعون) شيّدوا مرافق مختلفة على نفقتهم لصالح مدنهم بمناسبة توليهم مناصب إدارية أو دينية في بلدياتهم: مسارح، مكاتب، معابد، أسواق، حمامات، أقواس، تماثيل، وغيرها. في الواقع، من الصعوبة تقديم تعريف للمدن في هذه الفترة، فالمؤرخون يرفضون التعريف الإداري الحالي (2000 ساكن) لأسباب عديدة، وفضلوا التعريف الذي يقدمه الجغرافيون: المدينة هي تجمع حضري يقدم مختلف الوظائف والخدمات (الإدارية، السياسية، الاقتصادية، الروحية، الاجتماعية والثقافية). بهذا التعريف فإن النقوش تقودنا لتصنيف التجمعات الحضرية الرومانية ببلاد المغرب: رفع معبد هو شاهد على وجود الدين، وتشييد الحوانيت يعود على التجارة، وهكذا. رغم ذلك يميل الباحثون في تصنيف التجمعات العمرانية الرومانية إلى المعايير القانونية التي لا يمكن اعتبار التجمع العمراني مدينة إلا إذا اعترفت الدولة له بصفة "تجمع مواطني civitas" سواء كان مستوطنة أو بلدية، ويعتقدون أنه من أجل الحصول على هذا اللقب على السكان أن يبذلوا قصارى جهدهم لإعطاء منشآتهم المعمارية المظهر اللائق، وعليهم تشييد كل المباني الضرورية لتأدية وظائف مدينة حقيقية.

إذا جئنا لعملية تصنيف المدن الرومانية فيمكن تصنيفها على حسب تموضعها، أصولها وأبعادها، على ضوء ذلك نلاحظ المكانة الاستثنائية لمدينة قرطاج التي كانت ملتقى طرق هامة. أيضا لتحديد عدد المدن عوّّل البعض على قائمة الأسقفيات، فتم تقدير المدن حينها بـ 500 مدينة، منها 200 تقع في البروقنصلية، فهم يعتقدون أن كل أسقفية تتطابق مع مدينة، وبلا شك فإن ربع الشمال-الشرقي لتونس تجتمع به أكبر جزء من هذا المجموع. يحب المؤرخون تقسيم المدن إلى كبيرة، متوسطة وصغيرة: 2-3 آلاف نسمة للمدينة المتوسطة، 10 آلاف نسمة فما فوق مدن كبيرة. من بين المدن الكبرى نجد "قرطاج، لبدة، الجم، حضرموت، بنزرت، "هيون=عنابة"، وهي مدن بالبروقنصلية، لامبايزيس، تيمقاد، روسيكادا، قيرطا، بنوميديا، في حين شرشال، سطيف، تيبازة بالقيصرية، وأخيرا "قصر فرعون" بالطنجية. على أننا يمكننا أن نضيف بشكل افتراضي مدن: طرابلس، صبراتة بإقليم المدن الثلاث، صفاقس، سببيلة، مكثر، مدينة، مداوروش، الكاف، قالمة، حمام الدراجي، تبسة بالبروقنصلية، جميلة، خميسة، خنشلة، بنوميديا، وطنجة وسالا بالطنجية.

عند دراسة المدينة الرومانية فإنها نجدها تتوفر على مرافق ومنشآت تعبر عن الثقافة اللاتينية، البداية بالساحة العمومية (forum) التي تعد العنصر الأكثر أهمية بالمدينة، والذي على أساسه نعتبرها فعلا مدينة. توضع في منتصف المدينة، غالبا في المكان الذي يلتقي فيه "الديكومانوس الرئيسي" (المحور الشرقي-الغربي) مع الكاردو الرئيسي (المحور الشمالي-الجنوبي)، وتمثل الساحة مكان الحياة المدنية. هذه الساحة العمومية تغطي تدريجيا جوانبها بالمذابح النذرية، قواعد التماثيل، وهي تسمح للأشخاص بالالتقاء والحديث في مختلف القضايا، وهنا تمر السلع ويأتي التجار، وكذلك تقام العدالة (القضاء) بشكل علني. تمتلك الساحة العمومية ملحقة يُطلق عليها "البازيليكا" (الرواق المعمد الملكي). إلى جانب الساحة (قد تكون هنالك ساحتين بالمدينة) نجد مرافق تؤدي أدوار اقتصادية، على رأسها الحوانيت (boutiques) بالنسبة للتجارة، ورشات بالنسبة للحرف، وفي الساحل كانت هنالك موانئ مهيئة لهذا. فمثلا "تيمقاد" كان هنالك "حَيّ صناعي"، عديد الأسواق: السوق الشرقي، سوق الملابس، سوق سرتيوس. لعبت المدن دور ريادي على مستوى التبادل التجاري بين الريف والجماعات المجاورة. الدور الاجتماعي للمدينة يبرز من خلال السكن، فالأثرياء امتلكوا بيوت (domus) كبيرة تحتوي رُدهة الدخول، فسحة سماوية في قلب المسكن (atrium) وغرفة المكتب (tablinum)، وقاعة الاستقبال. مع إضافة العديد من الغرف: الحمامات الخاصة، غرفة الأكل، مكتبة، مطبخ، مستودع، وغيرها. ثم على الطريقة الاغريقية أضيف للسكن: حديقة، وفضاء محاط برواق ذو أعمدة، باحة معمدة. وحظي الديكور

بعناية خاصة: استخدام الرخام (marbre) المعبر عن الثراء، الرسومات الجدارية، وبالأخص الفسيفساء التي تعد من أبرز العناصر الجمالية للمنزل. وعلى النقيض، عاش الفقراء في منازل ذات مواد خفيفة لهذا لم يتركوا لنا أثرهم، وعرفت منازلهم بتسميات "قري" (mapalia)، والعشوائيات (ما يسمى في الجزائر البناء الفوضوي أو القصديري).

لتزويد المدن بالمياه شيّد الرومان قنوات مرفوعة=الحنايا (aqueducts)، وتعد حنايا زغوان الممونة لقرطاجة هي الأشهر، إضافة لحنايا شرشال، بجاية، والتي توصل المياه من المنابع إلى خزانات مياه المدن ثم عبر شبكة أنابيب تنقل إلى النافورات العمومية التي ترمز لعبادة الحوريات (nymphée)، وهنالك أيضا نافورات المعابد السبعة الكوكبية المسماة باسم septizonia. توفرت المدينة على مرافق التسلية والترفيه، فالحياة عند الرومان قامت على شعار "الخبز والسيرك (أو الخبز والألعاب) panem et circenses" (هي عبارة ساخرة للشاعر الروماني الهزلي "جوفينال" ينتقد فيها سياسة الالهة التي تبناها السياسيون في روما من خلال توفير الطعام والترفيه لاسترضاء الشعب ودفعه عن الانشغال بالشؤون العامة للبلاد). فتشكلت في بلاد المغرب أندية للأثرياء، والتي تتكفل بتنظيم العروض، بالأخص الملاكمة اليونانية (pugilats). الحمامات كان لها حضور قوي داخل المدن الرومانية، والتي كانت مقسمة إلى أربعة قاعات: غرفة تعليق الملابس، القاعة الفاترة (tepidarium)، الساخنة (caldarium)، والباردة (frigidarium). بذات المدن كانت هنالك مكتبات، مسارح تقدم مسرحيات كوميدية أو تراجيدية، أغاني. بمدن أخرى تواجدت "المدرجات" التي تقدم عروض المقاتلة الدموية، رجل ضد رجل، حيوان ضد حيوان، هي باختصار مكان المجالدين (gladiators)، وبه تنفذ أحكام الإعدام (مثلما حدث لشهداء المسيحية)، تم إحصاء الكثير منها، 32 في تونس الحالية، ومن أشهرها نجد "مدرج=قصر الجم" الذي يعد تحفة معمارية. في بعض المدن أقيم "السيرك" المخصص لسباق العربات، والذي تواجد بمدن عديدة: قرطاجة، أوتيكا، دوقة، الجم، لبدة، قيرطا، سطيف، شرشال. في الأخير توفرت المدن على المرافق الدينية: المذابح (autels)، المعابد هي بمثابة بيت الإله، والأوفياء لهذا الإله يزرون المعبد ويقدمون القرابين، على أن "الكابيتول" هو أشهر مبنى ديني بالمدن الرومانية لأنه مخصص لعبادة الآلهة الثلاث الأكبر=الثلاثي الكابيتوليني: يوبيتر، يونو، منيرفا.

4-2-المؤسسات السياسية والحياة البلدية:

لقد حافظت المؤسسات السياسية البونيقية على وجودها في عديد المدن المغاربية لغاية القرن الثاني ميلادي. وفق التقاليد، فإن أي جماعة بالمقاطعات الرومانية كان لابد أن تكون لها مؤسسات تسمح بأداء وظائفها: تسيير الشؤون المالية، السهر على النظام العام وإقامة العدل. وهي مهام تكفل بها جملة من الشخصيات ذات ألقاب مختلفة، والذين يُسمون الموظفين القضائيين بالبلدية حيث يمكن اعتبارهم بمثابة "مجلس شيوخ محلي"، ومن حيث المبدأ يُسمون "أعضاء مجلس الوجهاء=أعضاء المجلس المحلي ordo decurionum"، والذين ينتخبون من قبل نظرائهم: بهذا المجلس نقف على السلطة الفعلية المحلية تحت سطوة حاكم المقاطعة. مجلس الشعب (populus) لم يكن له دور كبير، في المقابل نجد أن العديد من المدن المغاربية امتلكت مجالس المشيخة البلدية (curia)، والتي فتحت نقاش طويل حول أصولها: بونيقية أو رومانية، كما لا نعرف من هي النخبة الاجتماعية التي يسمح لها بالانضمام لها. هؤلاء الموظفين القضائيين تنظمهم تراتبية، فنجد المراقب المالي (questeur) الذي يشرف على الشؤون المالية، إحصاء النفقات، الاحتياطات المُشكلة من الاعتمادات المخصصة وليس الخاضعة للرقابة (impensae remissae). بعده "الإيديل" الذي يسهر على السير الحسن للمدينة، يعمل على ترميم المباني، وبالأخص المعابد، فاسمه في الحقيقة مشتق من "المعبد aedes"، متابعة إمدادات الأسواق، ارتفاع أسعار الغلال وسراق الدجاج. في القمة هنالك رجلان يديران الحياة البلدية هما: "حاكمي البلدية المُكلفين بإقامة العدل" (duoviri iure dicundo)، وهما بمثابة "القضاة السنويين" في روما، لكن في الواقع لا يشرفان سوى على القضايا الصغيرة، فالمسائل الخطيرة والهامة تترك للحاكم أو المفوض للفصل في شأنها، ويمكننا اعتبار هذين الحاكمين بمثابة تعويض لنظام "الشفطين" القرطاجي الراسخ في قلوب المغاربة، ومهمتهم الرئيسية هي الإحصاء المرتبط بغايات اقتصادية (ضبط الجباية الضريبية). هنالك

شخصيات أخرى في الحياة البلدية: بالنسبة للعبادة الإمبراطورية كان هنالك "كاهن العبادة الإمبراطورية flumen Augusti"، هنالك "حامي patron" المدينة الذي يكون عادة شخصية لها مسار مهني مرموق، ما يسمح له بالتوسط لدى السلطة الإمبراطورية أو لدى حكام المقاطعة لحل مشاكلها، وأخيرا "قيمي المدن curateurs" الذي يمكن اعتبارهم بمثابة "ممثلي=مندوبي" الامبراطور بالمدينة بهدف مراقبة نفقات البلدية وآليات تحصيل الضرائب.

4-3- الحياة الاقتصادية:

لعبت الزراعة في بلاد المغرب دورا هاما وحيويا في تاريخ الإمبراطورية الرومانية حتى أصبح يُطلق على المنطقة "مطمورة روما grenier de Rome"، رفقة "مصر": لكن من سخریات الزمن أن البلدان المغاربية ومصر هي اليوم أكبر الدول المستوردة للحبوب. في محاولة الباحثين لفهم "أسباب المعجزة" صاغوا العديد من العوامل، العوامل التاريخية، فهذه الأرض ظهر منها العالم الزراعي القرطاجي "ماغون"، والقرطاجيون مثلما كانوا شعب بحر كانوا أيضا شعب أرض، ولعبوا دورا هاما في تطوير الزراعة، دون إلغاء اسهامات الملوك النوميديون. روما لم تقف عند هذا الحد بل طورت شروط ممارستها عبر إلحاق وترسيم أراضي أنصاف الرحل، وعملت على زوال هذا النمط المعيشي مع عنايتها وتحفيزها للمستقرين، وهي سياسة أدت لتوسع الأراضي الصالحة للزراعة. يضيف الباحثون دور القوانين الرومانية في تثمين الأراضي البور والتشجيع على استصلاح الأراضي: قانون مانقيانا lex Manciana الذي نقش في عهد "ترايانوس"، ثم قانون هادريانوس lex Hadriana. طور الرومان تقنيات السقي والري، وطبقوا سياسة مائية مثيرة للإعجاب في منطقة معروفة بمناخها المتذبذب وشح التساقط: إنجاز سدود، قنوات، صهاريج، ومنشآت مائية أخرى، طبقوا حسابات دقيقة في سقي مختلف المحاصيل، نظموا توزيع المياه بين الفلاحين (في هذا الصدد نمتلك وثيقة "مروانة Lamasba). صاحب كل هذا عمليات "مسح وكنتره" كبيرة للأراضي، وتوزيعها على المستوطنين. هذه السياسة الزراعية أدت لتحول بلاد المغرب لقطب هام في انتاج الثلاثة المتوسطية: القمح، الشعير والزيتون، فقد كان هنالك انتاج كبير لمحاصيل الحبوب، فوفرت بلاد المغرب 3/2 حاجيات روما من القمح (إنتاجها تطور من 850 ألف قنطار في عهد "يوليوس قيصر" إلى 10-9 ملايين قنطار في عهد نيرون)، وكانت تزرع بالأخص في حوض مجردة، ماطر وباجة، السهول السطافية والقسنطينية، كما تطورت أيضا زراعة الزيتون بشكل كبير في مختلف أرجاء المنطقة.

كشفت الدراسات الحديثة عن نشاط مكثف في الصناعة الحرفية، فمن أجل الحصول على الطين النضيج لابد من جمع ثلاث شروط: الصلصال، الماء، الخشب. وإن كانت الصناعة الحرفية عرفت تطورات عديدة فإنها خلال الفترة الرومانية دخلت إلى مرحلة أخرى من الاتقان نتج عن تغيير المغاربة للمزودين، فنجد أنه منذ النصف الأول من القرن الأول بدأت الورشات المحلية في انتاج أواني المائدة، والتي تُسمى "فخار الطين المُمضى بختم، دمغة" (sigillé)، وهذا لأن الحرفيين يضعون عليه عادة اسمهم، غالبا بشكل مختصر في أعماق الأطباق، وهذا الختم يحتفظ باسم الصانع حتى ولو نسي منحه اسمه. هذه الصناعة الفخارية للأواني المنزلية، شملت كذلك صناعة "المصايح" بعد أن كانت تُستورد من مقاطعات أخرى، ونجد أيضا صناعة الأمفورات التي يُمكننا تشبيهها بالحاويات المتنقلة (conteneurs) في زماننا، فاستخدمت كعلب لحفظ النبيذ، الزيت، صلصة التوابل أو تخمير صلصلة السمك (garum) والسمك المملح، الخضر والفواكه، ويلاحظ أنه انتشر استخدامها في ثلاث جهات بالأساس: إقليم طرابلس، القيصرية والطنجية. هذه الأمفورات تُميز إلى عدة أنواع حسب اللون، التاريخ، الشكل، عرض الفم، المقبضين، وعلى ضوء هذه الميزات يؤرخ الباحثون الأصل الجغرافي وتاريخ أي واحدة منهم. نجد استغلال للمناجم، ومن أشهرها ما يُسمى "الرخام النوميدي" بشمتو، نضيف لهم صناعة الزجاج المخترع في سوريا ولبنان ومنهما انتشر في حوض المتوسط، كما كانت بلاد المغرب تزود روما بمعادن مختلفة: الرصاص، الحديد، النحاس، الفضة، الزئبق، الإثمد، لكن بكميات قليلة.

هذه المنتجات الزراعية والحرفية كانت محل تبادل ونشاط تجاري هام، محليا، جهويا، وإمبراطوريا، وبلا شك فإن هذه التجارة استفادت من شبكة الطرق الهائلة التي أنجزها الرومان الرابطة بين الريف والسوق، المدن الصغرى والكبرى، الداخل والميناء، كما استفادت من الصناعة الملاحية (السفن) التي نقلت السلع بين المدن الساحلية وبلاد المغرب مع

بقية مقاطعات روما، بل إن الرومان أقاموا علاقات تجارية حتى مع الصحراء الكبرى مستفيدين من علاقاتهم الجيدة مع "الغرامنت". بخصوص محاور التجارة نجد: التجارة المحلية التي تسمح لنا شواهد "دار القياس" من التعرف عليها، وهي وسيلة لمراقبة الأوزان المقامة من قبل الباعة والمشتريين، ونجد مثلا لها في "القنطرة" ببسكرة. كما نمتلك مجموعة معتبرة من النقوش تسمح لنا من التعرف على عديد الأسواق، وهي صنفين: أسواق الأرياف (nundinae) التي تخضع لترخيص حاكم المقاطعة، وأيضا السوق الحضري (macellum) الموجود بالمدن الهامة. علينا كذلك أن نميز بين عديد المعارض (foires): محلية، جهوية، وما بين جهوية، دورية أو دائمة. بخصوص التبادل التجاري والضرائب نمتلك وثيقة تعد من أشهر الوثائق في التاريخ الروماني تُسمى "تعريفه زراي tarif de Zarai"-زراي أو زراية، قرية ببلدية بيضاء برج بولاية سطيف-، والتي تحدد لنا قيمة المكوس=حقوق العبور (portorium) بين نوميدا والقيصرية للتجار القادمين من الحضنة نحو الهضاب العليا، ولدينا نقيشة مماثلة لها في "لامبايزيس". التجارة الخارجية نمتلك حولها مادة ثرية، فنعرف إن بلاد المغرب كانت تستورد الخزف (céramique) الإيطالي في البداية، وكذلك النبيذ. وتصدر القمح، وتبيع زيتها، لتتسع وتكبر الصادرات في القرن الثاني، فيلاحظ أن الطنجية والقيصرية تركزت مبادلاتها مع اسبانيا، في حين افريقيا ونوميدا مع إيطاليا ومقاطعات الشرق.

4-4-المجتمع:

بالنسبة للمجتمع فإنه تراتبي ومقسم إلى فئات (من الناحية القانونية) وإلى طبقات (من الناحية الاجتماعية). فنجد الجماعة الأولى التي نسميها "النخب الاجتماعية"، وهي اصطلاح يطلق لتمييز الأوساط التي تدير الدولة، أي أولئك الذين يقودون ويحكمون الرعية، وهي: الفئة السيناتوروية، الفئة الفرسانية والأعيان. استطاعت النخبة المغاربية أن تضع لنفسها مكانة معتبرة داخل الإمبراطورية، لدرجة أن سلالة إفريقيو-سورية حكمت الإمبراطورية (العائلة السورية). لتكون سيناتورا لابد أن تتوفر جملة من الشروط أولها الجرأة، الثراء (100 ألف سستريوس)، أن يضع المرء نفسه في خدمة الدولة، ثم عليه أن ينخرط في مسار هرمي شرفي أي تقلد جملة من المناصب: مراقب مالي، ايديل، مدافع عن طبقة العامة، قاضي سنوي، وأخيرا قنصل. على هذا الأساس نجد عائلات عديدة من المقاطعات السيناتوروية أصبحت من الفئة السيناتوروية: مثلا نوميدا تم إحصاء 68 سيناتور، 5/3 من قيرطا، بالنسبة لموريطانيا فقرابة 20 منهم من سطيف، في عهد "ترايانوس" أصبح "لوسيسوس كويتوس Lusius Quietus" الذي هو شخصية مورية من أحسن الزعماء التكتيكيين المقربين من الامبراطور. "فرونطوس القيرطي"، وهو خطيب ومعلم الإمبراطور "ماركوس أوريليوس" مارس مسارا متميزا أوصله لمنصل القنصل سنة 143م. سبتميوس سويروس المنحدر من عائلة ثرية ببلدة وصل لعرش الإمبراطورية، لتصل نسبة السيناتورويون المغاربة في القرن الثالث ما بين 15-23% حسب البعض، بل و26% عند البعض، وهي بالتأكيد نسبة معتبرة. بعدهم نجد من حيث السؤددية فئة الفرسان، والذين يشترط فيهم: الجرأة، ثروة قدرها 400 ألف سستريوس، الانخراط في خدمة الدولة عبر مسار مهني يمكن تقسيمه إلى ثلاث أجزاء: خدمة عسكرية لمدة 09 سنوات (قائد كتيبة، نقيب بالفيلق، قائد جناح)، ثم يتحصل على الوكالة، وبالأخص المتعلقة بالشؤون المالية، وفي الأخير الأفضل منهم يصل إلى المحافظيات الكبرى: الأسطول الإيطالي، الحرس والاطفائيون، الأنونا، وحكم مقاطعة مصر، وفي قمة المناصب شغل محافظ الحرس الإمبراطوري الذي هو بمثابة وزير الدفاع، وكلاهما (السيناتوروية والفرسانية) مرتبطان بالطبقة الأرستقراطية والرواقية، ولا يمكن التمييز بينهما من حيث الأيديولوجية والثقافة. بعدها نجد الأعيان المحليون، وهم أفراد يمتلكون ملكيات عقارية كبرى، وأحيانا ثروتهم تتجاوز ميزانية بلدياتهم، ولهم استثمارات في الورشات الحرفية واستهدفوا قطاعات متعددة، ونظرا لهذه الثروة فقد لعبوا دورا في الحياة السياسية لمدنهم وقدموا الكثير من الأعمال الإحسانية.

بعد هؤلاء يأتي "المتواضعون" أو ما يمكن أن نسميهم "العامة"، وهو تقريبا فقراء يشكلون غالبية المجتمع المغاربي، وهو جزء من البشرية لا يزال مجهولا يُطلق عليه اليوم المؤرخون "المهمشون"، وأصبح يثير اهتمام الباحثين لدراسته. يعتمد هؤلاء في معاشهم على أعمالهم البسيطة ذات الدخل المتواضع، ونجد على رأسهم الجنود سواء بالفيلق أو

بوحداث المساعدة، والذين يصل عددهم الإجمالي إلى قرابة 20 ألف جندي. هنالك التجار البسطاء والحرفيون، في حين الغالبية هم مزارعون. ظل الكثير من هؤلاء يصنفون وفق القانون الروماني كأجانب أحرار (pérégrins) لغاية مرسوم "كراكلا" 212م الذي منح المواطنة الرومانية لكل الأجانب الأحرار باستثناء الذين حملوا السلاح في وجه الدولة والمهزومين (déditices). في أسفل الهرم الاجتماعي نجد ما يسميه الرومان "الطبقات الخطيرة": السحرة، العرافين، المنجمين، وهؤلاء لأنهم يدعون معرفة المستقبل، كما كانت الدولة ترتاب من الفلاسفة، وهو الاسم الذي يعني كل المثقفين، ولعل تلك المحاكمة التي تعرض لها "أبوليوس" سنة 158م في "صبراتة" تعبر عن الحقد والخوف من المثقف. إلى جانبهم نجد: ممارسي الدعارة (رجال ونساء)، المتسولون، الصعاليك، العبيد، والمجالدون الهاربون، قطاع الطرق.

بخصوص تركيبة المجتمع فهي خليط من الشعوب، فيلاحظ أنه لم تكن هنالك حركات هجرة مكثفة باستثناء أعيان إيطاليا الذين قدموا في الفترة الجمهورية، ثم جاءت هجرات معتبرة في العهد الإمبراطوري قدمت مع القوات العسكرية، هنالك القادمون من الشرق سواء للتجارة أو الأنشطة الفكرية كالطب، والذين استقروا بالمدن الكبرى. قدمت أيضا هجرات من مختلف المقاطعات: أوروبا (الإيريون، الغاليون، البريطانيون)، مقاطعات الدنواب (نوريكوم، داقيا، الإيليريون والتراقيون)، من الشرق (المقدونيون، البيثينيون، سكان آسيا الصغرى، السوريون، المصريون، الكريتيون، والقورينائيون). اليهود نمتلك شواهد لهم حيث قدموا على الأرجح من الشرق. هذا التعددية العرقية تطرح تساؤلات عن الحالة الديمغرافية؟. في الواقع، من الصعوبة تقديم إجابات حاسمة حول الموضوع، فصحيح أن النقوش قدمت لنا الكثير من الافادات حول معدل الحياة، وعن الوفيات من مختلف الطبقات الاجتماعية والجنس، لهذا اعتبر مؤرخو المدرسة الأنجلوساكسونية التي وصف رأياها بالمتطرف في النقد أنه من الاستحالة قياس ديمغرافيا الفترة القديمة، في حين اعتبر الباحثون الفرنسيون أنه يمكن تقديم مقاربات تسمح بذلك، ومنه قدم البعض تقديراتهم. المؤرخ "كورتوا" قدم افتراض لكثافة متوسطة قدرها 10 نسمة/كلم² بالنسبة لكل الإقليم، و250 نسمة/كلم² في المدن، فوصل إلى تقدير هو 2.5 مليون حضريون من مجموع السكان المقدر بـ 04 ملايين. الباحث "Lézine" قدر السكان الحضريون بـ 1.3 مليون نسمة، اقتراحات جديدة قدمها "بيكارد" و"الاسار" استندا في صياغتها على النصوص، علم الآثار والنقوش، قائمة الأسقفيات في القرن الرابع-الخامس، فاعتبر "بيكارد" أن هنالك 500 مدينة، وبالعودة إلى الأطلس الأثري التونسي اعتبر أن هنالك مدن تغطي مساحة متوسطة هي 30 هكتار بالبروقنصلية، 80 هكتار في زغوان والمزاق، ليخلص أن عدد سكان المدن غالبا يصل لـ 10 آلاف نسمة، و6000 نسمة للتجمعات الوسطى. بهذه الشروط قدر السكان الحضريون بـ 05 ملايين نسمة، 3/2 منهم في البروقنصلية على مساحة 100 ألف كلم²، أما بالنسبة لسكان الأرياف فحسابهم يؤخذ فيه بعين الاعتبار عوامل عديدة، ليقدر عددهم بـ 1.5 مليون نسمة (المجموع 6.5 مليون نسمة). "الاسار" اعتبر أن تقدير السكان لابد أن ننتبه في دراسته لجملة معطيات: الازدهار، التوطن (الاستقرار)، السلام، ممارسة الرياضة، تطور النظافة، معدل الحياة، المستوى المعيشي، الزيادة الطبيعية، نسبة الوفيات، معدل الانجاب، مدى تطبيق الإجهاض، معدل سن الزواج، في الأخير ذهبت تقديرات البعض لرقم 07 ملايين نسمة.

4-5-الثقافات:

فهم ثقافات بلاد المغرب مرتبط بالتنظيم الاجتماعي وبالتعددية العرقية التي كانت تسكنه. بالعودة إلى الثقافات السائدة فإننا يمكننا القول أنه ما بين 46-146 ق.م كانت هنالك ثلاث ثقافات كبرى متجاورة: الليبية، البونيقية وبدرجة أقل الرومانية دون انقسامات ولا حقد بين حاملي كل ثقافة، ولحد ذلك الوقت لم تتدخل الدولة لفرض قيمها الفكرية. الليبيون (النوميديون، المور والجيتول) كانوا على تأثيرات متفاوتة من البونقة، البونيقيون بدورهم حافظوا على هويتهم لكن العديد فقدوا تدريجيا لصالح اللاتينية. نجد أن الانخراط في الرومنة انخرط فيه الليبيون والبونيقيون الحضر بالأساس، عكس الريفيون والجلبليون الذين قاوموا الرومنة وحافظوا على خصوصيات المجتمع المحلي، لكن هذا لم يمنع من وصول التأثيرات الرومانية إليهم. الليبيون الجدد كانت لهم لغتهم، كتابتهم، أسماء أعلامهم، تنظيمهم الاجتماعي

وآلهتهم، على أن فك نقوشهم لا تزال تواجه الباحثين فيه صعوبات متعددة: هنالك أربع كتابات، تكتب من اليسار إلى اليمين، ولأن روما أسقطت ممالكهم فقد حافظوا على نظامهم الاجتماعي "القبيلة"، وقاوم الرجل للحفاظ على نمطهم المعيشي. آلهتهم بالأساس طبيعية: بجلوا الأماكن المرتفعة الجبلية، الكهوف، منابع المياه، الآلهة الشمسية (الشمس، القمر، والإله الشمس أمون)، وتنتشر بينهم عبادة الموتى، ثم تأثروا بالآلهة القرطاجية (تانيت، بعل أمون)، وفيما بعد الرومانية واللاغريقية. الثقافة الليبية الجديدة تعرضت لتأثيرات سامية نتيجة علاقاتها مع البونيقين، في الميدان الجنائزي، وبعضهم تأثر جدا بالبونيقية وسموا "الليبو-بونيقين".

الحضارة البونيقية الجديدة ظلت مستمرة، فقد حافظ الفينيقيون ببلاد المغرب بعد الغزو الروماني على لغتهم، كتابتهم، أسماء أعلامهم، هياكلهم البلدية وعلى البانثيون (معابد الآلهة) الخاص بهم، وهذا لم يمنع من تأثرهم بالثقافة الرومانية، فنجد أن اللغة البونيقية تراجعت تدريجيا في المدن وظلت قائمة في الأرياف، وما يدل على ذلك أنه تم إحصاء حوالي 1000 نقيشة بونيقية بعد سنة 146 ق.م في 110 مكان، بالأخص في "قرطاجة"، لبدية، قسنطينة، مكثر. احتفظوا كذلك بأسماء الاعلام كمظهر من مظاهر المقاومة اتجاه الدولة التي دمرت عاصمتهم، ولأسباب دينية، فنجد مثلا شخص يدعى "حنبل" عمل بالفيلق الأوغسطيني، ونعرف أن الكثير من المدن حافظت على نظام الأشفاط لغاية القرن الثاني. بالنسبة للديانة البونيقية فإنها استمرت بفضل ظاهرة "التأويل الروماني interpretatio romana" كما سنتعرف. في الأخير القديس أوغسطين في القرن الخامس ميلادي ينقل لنا أن فلاحي "هيون" عندما نسألهم من أنتم يجيبون بالبونيقية: "نحن كنعانيون".

عندما نتحدث عن الحضارة الرومانية فنحن نصطدم أمام مفهوم "الرومنة romanisation"، والذي نظرا لأنه لا يزال يطرح العديد من الإشكالات فإن البعض راح يفضل استخدام اصطلاح "الرومنية أو الرومانية romanité"، وهذا لأن الاصطلاح غامض مثلما أشار لذلك "بينابو" الذي ميّز بين عملية "الأنطونيون رومنا الأوراس"، ونتيجتها: "في عهد السويريون الأوراس ترومنت romanisé". كما راح الباحثون الأنجلوساكسون مؤخرا يعتبرون أن الكلمة "غير مناسبة" (كلمة الرومنية) لأنها تقتضي اختفاء الكثير من الكتب الجيدة المؤلفة. في الواقع، إن الباحثون الحاليون عندما يتكلمون عن الرومنة يفكرون غالبا وبالأخص في الحياة البلدية التي تلخص من وجهة نظرهم جوانب ومظاهر المشكلة. إننا عندما نتحدث عن الرجل الروماني فنحن نشير لثلاثة سمات: أولا تبني واعتماد نمط العيش الروماني، لكن هذا الشرط له تحفظات باعتبار أن درجة تبنيهم لنمط العيش الروماني كانت متفاوتة. ثانيا: دعم لا تشوبه شائبة للسياسة الإمبراطورية، ثم أخيرا حصولهم على المواطنة الرومانية (civitas romana) كمكافأة لتوجههم العام. بهذا، فإن "الرومانيون" هم من يتحدثون اللاتينية، والذين يتعلمون هذه اللغة في المدرسة، وأتقنوها سواء في مكتبة عائلتهم أو بالمدرسة. التعلم كان متاحا ووصل لمستوى جيد في بلاد المغرب، وكانت المؤسسات التعليمية تعمل وفق النموذج العام الروماني، فتغرس في التلاميذ حب القراءة لشيشرون وفرجيل، ونتج عن ذلك كتاب كتبوا خواطرهم على النقوش والفسيفساء، وشعراء نحتوا قصائدهم على النقوش. سمحت لنا الوثائق من التعرف على مؤسسات تعليمية ذات مستوى جيد: 05 في إقليم طرابلس، 10 في المزاق، 8 في زغوان، ومن ضمنها مركز قرطاجة التي درس بها "أوغسطين" و"ترتليانوس". في حين المكتبات لم تكن معتبرة: تيمقاد، وربما أيضا في "حمام دراجي". المستوى الثقافي العام كان محل دراسة وتقييم بالاستناد على النقوش أين طرح سؤال: هل النقوش المحررة باللاتينية ذات لغة جيدة أو سيئة؟. في هذا الموضوع علينا أن نعرف أن الذين حرروا النقوش ينحدرون من طبقات اجتماعية مختلفة، أكثر أو أقل رومنة. الدراسة وصلت إلى ارتكاب أخطاء كثيرة في توظيف الزمن، وفي وصف الوسط العرقي والاجتماعي. كما تم العمل على تقييم اللغة من خلال النقوش الشعرية المقدره بأكثر من 600 نص مؤرخة في غالبيتها بما بعد منتصف القرن الثاني أين اكتشف أن الغالبية متأثرة بعمل "فرجيل" (الانيادة)، ورغم عديد الأخطاء اعتبرت تلك الأعمال ذات مستوى مقبول.

ارتبط بالثقافة الرومانية كذلك نمط نحت النقوش، والتي تطورت بشكل كبير في القرون الثلاث الأولى، حيث قدر البعض عددها بـ 50 ألف نقيشة اكتشفت في مختلف المقاطعات المغاربية، والمتمركزة في الزاوية الشمال-الشرقية

(تونس الحالية). في الواقع، تأثيرات الرومنة هي أكثر أو أقل أهمية، ولا تزال محل دراسة: هل نجحت أو فشلت؟، فصحيح أنها نجدها مجسدة في الأنصاب (stèles)، النقوش، الأدب والفنون، إلا أنها هنالك مشكلتين مطروحتين هو التأثيرات التي خضعت لها؟، وإن كانت تلك التأثيرات محتمل أنها ذات أصول إفريقية؟. إن الإرث الليبي والبونيقى من الصعوبة قياسه، فهو يتركز بالأساس في أسماء الأعلام (onomastique) والدين، وعلينا أن نضيف التأثيرات الاغريقية التي كانت موجودة وتدعمت مع القدوم الروماني. هذه التعددية الثقافية خلقت تعددية لغوية، فنجد مثلا "أبوليوس" كان ثنائي اللغة (لاتينية وإغريقية)، ومعه مجموعة من الكتاب التي كتبوا وفق ثقافة رومانو-إفريقية: أبوليوس، فرونتون القيرطي، ترلتيانوس، سبتميوس سويروس، ثم فيما بعد القديس أوغسطين الذين أصبح يطلق على الجميع "الأفارقة"، وهؤلاء عندما كانوا يتكلمون اللاتينية فإن لهم "الكنة" خاصة بها، وهو ما نراه بوضوح مع الإمبراطور "سبتميوس سويروس".

4-6-المفكرون والكتاب:

خلال العهد الإمبراطوري الأعلى برز العديد من الكتاب والمفكرون في بلاد المغرب، وإن كان البعض اعتقد على كونهم أفارقة على غرار "Aulu-Gelle"، و"فلروس" Florus، فانه من دليل يؤكد هذا، بل يبقى مجرد احتمال. أنجبت المنطقة الكثير من المفكرين، الفلاسفة، مثلما تسميهم النقوش، على أن العديد منهم لم يترك لنا أي نصوص، وآخرون فقدنا نصوصهم طوال هذه العصور قرنا. فولدت لنا المنطقة نحويون مثل: Flavius Pudens Pomponianus، Terentianus ويوبا الثاني. خطباء مثل: Sulpicius Apollinaris من قرطاجة، Cornutus من لبدة، بالأخص العديد من كبار فقهاء القانون: C. Puctumeius Clemens من قيرطا، Sex. Caecilius Africanus من طبرية، وأعلى هؤلاء جميعا الشهير: L. Salvius Iulianus، من حضرموت. سمحت لنا النقوش من التعرف على الأقل على عشرة مختصين في القانون والمدونات القانونية، والذي وردت الإشارة لهم أيضا في مدونتي "ثيوديسيانوس" و"جوستينيان". هذا الحضور القانوني جعلها تنجب الكثير من المحامين الذين كانوا محط سخرية من جوفينال الذي وصفها ووصفهم: "إنها مرصعة صغيرة (إفريقيا) للمحامين السيئين". بالنسبة للكتاب فنجد أسماء بارزة ولها سمعة، وتأثيرات كبيرة، بالأخص في اللاهوتية المسيحية وهي: القديس "ترلتيانوس"، "قيربيرانوس"، الكاتب "أرنوبيوس"، والشهير القديس أوغسطين، وهؤلاء جميعا كانت لهم معرفة قانونية جيدة. علينا كذلك إضافة بعض التقنيين، على رأسهم الطبيب "Gargilius Martialis" الذي برز في النصف الثاني من القرن الثالث، والذي عرف بأهمية أسلوبه الكتابي.

قدمت بلاد المغرب للحضارة الرومانية واللاتينية العديد من كتاب الأدب اللاتيني، البداية مع "يوبا الثاني" الذي كتب الكثير، لكن للأسف لم يصلنا منها شيء، لكن طبعا ألفها بالإغريقية. حرر "L. Ampelius" في شرشال في نواحي حكم "ماركوس أوريليوس" مؤلفه "مساعدة الذاكرة liber memorialis". في النصف الثاني من القرن الثالث نجد الشاعر "نيميسيانوس" الذي ألف ثلاث أعمال تعليمية: حول الصيد de la chasse، قصائد رعوية églogues، وأخير العمل الشهير "سهرة فينوس (ربة الجمال)". كما يمكننا أن نميز في الكتاب بين الوثنيين والمسيحيين. النوع الأول على رأسه "فرونتون القيرطي" الذي اشتهر أكثر بكونه معلم الامبراطور "ماركوس أوريليوس"، والذي رغم أنه انتقد بشدة من أحد كتاب كتب الدليل البحثي اسمه "بيشون": "هنالك أعمال قليلة كما أنها فارغة الأفكار، ومن أمثلتها تلك التي كتبها فرونتون". عاش فرونتون ما بين 100-175/180م، وترك بالأخص رسائل وخطابات ذات قضايا فكرية وفلسفية متعددة. الشهير الآخر هو "أبوليوس المداروشي" الذي وصفه "مونصو": "بدوي bédouin في مؤتمر للكلاسيكيين". ولد سنة 125م في عائلة مرموقة وتحصل على ميراث قدره 200 ألف سستريوس، درس في قرطاجة، روما وأثينا، وله قصة زواج من امرأة تكبره سببت له مشاكل قضائية كبيرة، والتي روى أحداثها في كتابه "مرافعات دفاعية apologie"، وألف أجمل نصوصه في كتاب "الأزاهير Florides"، ومن أشهر أعماله رواية "التحولات أو الحوار الذهبي". في هذا العمل الأخير وبقبة أعماله تظهر القيمة الفكرية لأبوليوس كشخصية موسوعية، بوليغرافي (يكتب في ميادين مختلفة)، يظهر بصورة الفيلسوف والرجل المثقف، حكيم، ثنائي اللغة، خطيب، شاعر، فقيه قانوني، كما أنه شغوف بالعلوم المسماة بالدقيقة:

البصريات، العلوم الطبيعية، الصيدلة والطب، توفي سنة 170م، بالنسبة للكتاب المسيحيون الذين تركوا مؤلفات كثيرة نجد "ترتليانوس" (160-220م)، "قيبريانوس" (200-258م)، و"أوغسطين (الهيبوني) 354-430م (توفي عشية حصار الوندال لعنابة).³

4-7-الديانات:

يحتل الدين أهمية كبيرة في مجتمعات الفترة القديمة، فهو روحها. تنوعت ديانات المغاربة بين التعددية الإلهية polythéisme، والتي سميت من قبل المسيحيين بالوثنية (paganisme)، إلى جانب اليهودية، المسيحية. داخل التعددية الإلهية نجد آلهة متعددة: ليبية، فينيقية، رومانية واغريقية، دون نسيان آلهة شرقية وغربية أخرى، وبالتالي نحن أمام مجموعة هائلة من الآلهة، ما يطرح تساؤلات حول كيف تعايشت هذه المعتقدات إلى جنب بعض دون أي تصادم. لفهم ذلك نرى أن الباحثون تجنبوا فكرة حدوث "توفيق بين الآلهة" (syncretisme) لكونها غامضة، لكن في الواقع نمتلك عديد الأمثلة التي تؤكد أن السكان طبقوا ما يسمى "التأويل=التفسير عبر الوساطة الرومانية interpretatio romana" أي استيعاب الآلهة الرومانية لمعبودات البرابرة (الأجانب عنهم)، وهو أمر معروف وشهير ونمتلك أمثلة لا حصر لها حوله. في هذا الصدد نجد أن الإله الأكبر في بلاد المغرب هو "ساتورن الإفريقي Saturne africain"، الذي أساسه وأصله هو الإله "بعل حمون" القرطاجي، ثم أضيفت له تأثيرات إيبيرية، مصرية، هليستية. هو إله يرمز ربما للخصوبة وللزراعة. الوثائق الخاصة به نجدها بالأخص في "قرطاجة"، حضرموت، دوقة، وفي حرم الحفرة بقرطاج، على أن معابده ووثائقه بدأت تتراجع في عهد "الفلاويون" بفعل إنهاء البونقة، فأصبحنا نجد معابده في وسط معابد قديمة، في أماكن مقدسة ذات أمك مفتوحة، ورغم التضيق فقد قاومت عبادته فنجدها وصلت لذروتها في عهد الأسرة السويرية، وعاشت لزمان القديس أوغسطين رغم التحريض المسيحي ضدها، بل إنها احتفظت بأوفياء لها في عهد الامبراطور "يوستينوس الأول" 518-527م، وربما ظهرت عند "قوريبوس" في النصف الثاني من القرن السادس، وفي دراسته حول الموضوع خلص "م. لوغلي" أن الأوفياء لهذا الاله ينتمون لشعب ذو تقاليد إفريقية يعيشون في الأرياف (بالتأكيد هم البونيقيون بالأساس ثم الليبيون).

نضيف له الربة "قايليستيس" (Caelestis) التي هي في الأساس الإلهة "تانيت" القرطاجية، الآلهة الليبية المعروفة باسم "الآلهة المورية dii Mauri"، ومع تعاظم دور الأفارقة داخل الإمبراطورية فقد خلقوا ربة مكانية هي إفريقيا Africa". إله افريقي آخر يدعى Aulisva، دراسة جرت مؤخرا في إقليم طرابلس كشفت لنا أن الإلهة الفينيقية جلبت مباشرة من الشرق دون المرور على وساطة قرطاجة. ربة الزراعة، الحبوب، والحب الذي تحمله الأم لابنها "سيريس Ceres" كان لها حضور قوي (115 نقيشة)، كما أحصى الباحثون آلهة إفريقية عديدة مخفية بأسماء لاتينية. حظي الثلاثي الكابيتوليني بمكانة هامة (أكثر من 58 كابيتول تم احصاءه)، ولنا أمثلة كثيرة عن آلهة أخرى: أسقيليبوس، هيجينيا، إيزيس، ميترا، مارس، سرايبس. بدورهم اليهود شكلوا جماعة حظيت باهتمام المؤرخين. هؤلاء أخذوا تسمية مأخوذة من الاغريقية هي "الكنيس=الكنيسة synagogue"، الذي يعني كذلك مكان تجمعهم. كانوا منتشرين في عديد المقاطعات، وبالأخص البروقنصلية، وكان قدومهم من الشرق بالأخص منذ حروب "واسباسيانوس" ضدهم. أخيرا بخصوص المسيحية، فإنها ظهرت بشكل مفاجئ وضمن ظروف دراماتيكية سنة 180م، ففي 17 جويلية من هذه السنة تم قطع رؤوس 12 مسيحي، وتواصلت القمع المنظم ضدهم سنوات 203م، ويبدو أن المسيحية كان انتشارها سريعا نوعا ما، ما جعل ترتليانوس يقول: "إننا موجودون في كل مكان". رغم الاضطهاد وتزايد أعداد الشهداء فقد تم إحصاء 71 أسقفية ما بين 200-220م في البروقنصلية ونوميديا، ثم 90 بين 236-248م. بخصوص التنظيم فقد نقل الكتاب المسيحيون المذكورون الكثير عن تنظيماتهم.

³ للتعرف على هؤلاء الكتاب المسيحيون يمكن العودة إلى أعمال عديدة حولهم: عمران عبد الحميد: الديانة المسيحية في المغرب القديم: النشأة والتطور 180-430م، الربيع عولمي: المسيحية في بلاد المغرب القديم ودورها في أحداث القرنين الرابع والخامس، روبين دانيال: التراث المسيحي في شمال إفريقيا.

4-8-الرومان، الرومنة والأفارقة أية صلوات:

هل كان الأفارقة ضد أو مع روما؟. لقد كان يعتبر مؤرخو الفترة الاستعمارية أن بلاد المغرب كانت فريسة اضطرابات وثورات دائمة (أي الأفارقة كانوا ضد روما)، في هذا الصدد نجد "كاركوينيو" يقدم أدلة تدعم هذه الفرضية، وهو الانطباع الذي خرج به المؤرخ الإيطالي "رومانيلي". ذات النظرية استأنفت لمؤرخي "ما بعد الاستعمار"، المؤرخ اللامع في هذا الموضوع كان "بينابو M. Bénabou" الذي عدد الاضطرابات العسكرية التي عرفتها المقاطعات، واعتبرها ضمن ظاهرة "المقاومة"، والتي دعمها بالعودة إلى ديمومة الديانات الليبية والبونيقية التي اعتبرها أعمال لمقاومة ثقافية، ثم ختم بأن ما قلل من مفعول الرومنة هو وجود التنظيم "القبلي"، وكل هذا ساهم في الإبقاء على اللغتين البونيقية والليبية. هذه النظرية التي قدمها فتحت الباب لنقاشات واسعة بين الباحثين، ولفتت الانتباه فعلا لوجود "ترومن جزئي" وليس كلي، فقد كان هنالك أفارقة يعيشون في المدن، يتكلمون اللاتينية، ولا يكرمون سوى الآلهة الرومانية واعتمدوا الأسماء اللاتينية، وآخرون عاشوا معزولين عن ذلك بالأخص الجبليون، الريفيون، بإقليم طرابلس والموريطانيتين. بالنسبة للبعض فإن اصطلاح "المقاومة" هو مفارقة تاريخية anachronique (اصطلاح لا يصح اطلاقه على ذلك الزمن)، كما أنه بالعودة إلى الاضطرابات والقتال التي شهدتها بلاد المغرب في العهد الإمبراطوري الأعلى فإنه لا بد أن نضع لها تميزات كرونولوجية، جغرافية وتصنيفية، فهي تمتاز بكونها متقطعة مع اتساع أقل، ولا بد من فهم عميق لأسبابها لتحديد طبيعتها، وإن كانت الموريطانيتين شهدتا اضطرابات متعددة فإن البروقنصلية ونوميديا قد وصلت إلى ما يُسمى "السلم الروماني pax romana". بالنسبة للجوانب الثقافية فإنه قد يمكن تسميتها بالمقاومة الثقافية، لكنها في الحقيقة "ثبات persistance" لعناصر عديدة مثلما أشار لذلك الباحث التونسي "عمار المحجوبي": "عقدة المُستعمر، الأهلي (المحلي) الخاضع والمُسيطر عليه، يظهر...أنها لا تُقَدِّر أسلافنا، علاوة على ذلك، عقدة المُستعمر هي بدورها لم تكن موجودة". لهذا فإن استحضار الحياة الدينية عند البعض غير دقيق ولا موفق، فالناس خلال الفترة القديمة لم يكونوا "توحيديون monothéistes" حصريا، وهؤلاء مثلما كانوا يكرمون جيدا آلهة أوطانهم فعلوا ذات الشيء مع آلهة البلد المستقبل. بخصوص النظام البلدي يرى البعض أن روما لم تكن تسعى لفرض نظام أو آخر، كما أنهم حافظوا على لغتهم الليبية والبونيقية. وفق كل هذا يدعي محسني صورة الاحتلال الروماني أن بلاد المغرب كانت أرض التعايش بفضل انخراط سكانها والدعم الذي قدموه للسلطة الإمبراطورية، فالجيش هو الذي ضم الروماني والغير روماني لخدمة الدولة، وترتليانوس، وأبوليوس، وأوغسطين، وغيرهم كلهم ربطتهم روما بثقافتها وأبدعوا من داخلها.

في الواقع، إننا نظرنا للوهلة الأولى للتحويلات الكبرى التي أحدثها الرومان في المنطقة، وحالات الترقية الاجتماعية التي حدثت للبعض، فإننا قد نشبه الرومنة بالديمقراطية في زماننا، ولبّدت لنا سياسات روما في قمة الحكمة، التقدمية والمرونة. لكن الوقائع الميدانية كانت تقول عكس ذلك، فالمدافعون عن صورة روما يغفلون أو بالأحرى يُدارون عن انتهاكات روما ضد سكان المنطقة: إبادة حاضرة بحجم قرطاجة، إسقاط ممالك، انتزاع أراضي، عنف، تنكيل وعدوان، تغيير لنمط العيش، إرهاب ضريبي واستعباد بشري، وعلينا أن نغتر بحالات النجاح القليلة لبعض الليبيون الذين قدموا خدماتهم لروما التي يمكننا أن نسميها "النخبة المحظوظة". إذن ذلك الاعجاب بأحجار روما المقصوبة، مُدنها الفاخرة، التكريسات الاهدائية علينا ألا ينسينا في الخنادق والقلاع، التحصينات والمعسكرات، الطرق والصوات الميلية التي جاءت لإحكام السيطرة على البلاد، لاستغلالها ولحرمان الأهالي من أرضهم. بهذا فإن روما في نظرنا فشلت في احتواء المغاربة الذين صحيح أنهم عجزوا عن إنهاء الاحتلال الذي لم ينته إلا بفضل القدوم الوندالي، لكن تلك الاضطرابات، الغارات، التمردات، ما هي إلا ردات فعل فاضحة لدعاية قبول الأهالي لوجود روما ولميثاق السلم الروماني. كما أن بلاد المغرب لم تصر بلدا لاتينيا كإسبانيا وبلاد الغال، لأن الذات المحلية كانت مؤمنة بخصوصيتها وقاومت (دعونا نتأمل جيدا كيف أن البونيقيون بعد 06 قرون من الاحتلال الروماني لم ينسوا أصولهم الكنعانية): ولا للمفارقات: إسبانيا رغم تعرضها لنهب وسيطرة البرابرة الجرمان، ثم البيزنطيون، ثم حكم قرون للحضارة العربية-الإسلامية، إلا أن اللاتينية صمدت نظرا لثباتها على الاقطاعية والمسيحية، في بلاد المغرب اللاتينية اندثرت لأنها لم تكن لها قاعدة قوية تستند

عليها، ثم آتت فتوحات العرب المسلمون لتقضي على وضعها الهش، ثم أدت أعمال الدولة الموحدية وهجرة الهلاليون للقضاء نهائيا على بقايا المسيحية واللاتينية.